كوكتيل 2000

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

روايات مصرية للجيب

النداء

وقصص أخرى

Looloo
www.dvd4arab.com

- مع بدء العــد التنــازلى ، نحو القــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيــل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضــارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليوم

د. نبيل فاروق

(قصة قصيرة)

دموع الإنترنت

خفق قلب (هبة) فى قوة ، وراح يرتجف فى صدرها كطير مبتل ، سقط وسط جبل مــن الجليد ، على الرغم من كل ما تشعر به من دفء وحرارة فى أعماقها ، وهى تمدّ أصابعها الرقيقة ، لتضغط أزرار الكمبيوتر ، وتوصله بأسلاك الهاتف ، تمهيدًا لاتصالها بشبكة الإنترنت ..

وبكل جوارحها ومشاعرها ، تعلّقت عيناها بالشاشــة الكبيرة ، فى انتظار ظهور رسالته ..

رسالة (نادر) ..

ومرة أخرى ، ارتجف قلبها ، وراح يرقص بين ضلوعها ، مع ذلك الرنين القصير ، الذى سبق ظهور الرسالة ، والتمعت عيناها بحب وحنان جارفين ، وهى تلتهم سطورها القليلة ، فى لهفة ما بعدها لهفة ..

إنه هو ..

أخيرًا عاد إليها ..

عاد بعد أسبوعين كاملين ، لم تصلها خلالهما رسالة واحدة منه ..

ولا أحد ، فى الدنيا كلها ، يمكن أن يتصورّ مدى اشتياقها إليه ، ولهفتها عليه ، طوال تلك الفترة ..

هى نفسها لم تكن تتصورّ أنها تحمل له كل هذه المشاعر ..

بل ولم تتصورّ أبدًا أن تشعر نحوه بأى شىء على الإطلاق ..

فالعجيب أنها لا تعلم عنه إلا أقل القليل ..

فقط ما أخبرها هو به ..

وبينما انساب بصرها فى نعومة ، على أسطر رسالته المحدودة ، راح عقلها يسبح مع ذكريات قريبة ..

ذكريات عمرها ستة أشهر فحسب ..

ذكريات أول صدمة عاطفية فى حياتها ..

فطوال أعوام دراستها ، وحتى تخرَّجت من كليتها النظرية ، لم ترتبط (هبة) أبدًا بعلاقة حب ، أو حتى إعجاب ..

كل زميلاتها كن يرتبطن بشباب فى مثل عمرهن ، ويربطن حياتهن وقلوبهن بهم ، ويتحدَّثن طوال الوقت عن مشاعرهن ، وارتباطاتهن ، وأحلامهن الوردية فى الحياة والمستقبل ..

أما هى ، فلم تكن تتحدَّث أبدًا ..

بل ولم تشعر قط بما كن يصفنه عن أعماقهن ..

صحيح أن قلبها الصغير كان يهفو للحب والسعادة والارتباط ، ككل أنثى فى عمرها ، إلا أنه لم يخفق قط لأحد زملاء الدراسة ، أو النادى ، أو حتى لابن الجيران ، كما يحدث فى المعتاد ..

وكان هذا يدهش زميلاتها كثيرًا ..

ويدهشها هى أكثر ..

وفى معظم لياليها ، كان قلبها يتساءل : لماذا لا تحب ؟!

لماذا لم تشعر يومًا بأية عاطفة حقيقية صادقة تجـاه أى شاب ؟!

إنها فتاة جميلة ، رقيقة ، مثقفة تنتمى إلى أسرة كريمة محترمة ، لها سمعتها الطيبة فى الحى كله ..

وهى أيضًا نشيطة ، اجتماعية ، تُمارس حياتها الجامعية فى بساطة وثقة ..

ثم إن العديدين من الشبان قد حاولوا التقـرُّب إليهـا والارتباط بها ..

ولقد حاولت أن ترتبط بهم أيضًا ..

ولكنها لم تنجح أبدًا ..

شىء ما فى أعماقها كان يهوى فى محيط من الملل ، بعد دقائق معدودة من حديثهم معها ..

شىء ما فى عقلها ، كان يرفض الخوض فى أحاديث تافهة أو فارغة ، أو قضاء الوقت فى مراجعة ما فعله الآخرون ، وانتقاد كل تصرفاتهم ومشاعرهم ..

وشىء أكبر ، فى كيانها كله ، كان يأبى الارتباط ..

مجرد الارتباط !!

ولقد حاولت أكثر من صديقة إقناعها بالارتباط بشاب ما ، بحجة أن هذا يضاعف من ثقتها بنفسـها ، ويمنحهـا نوعًا من الأمان النفسى والعاطفى ..

بل إن معظمهن حاولن دفع صديق أو آخر فى طريقها ..

ولكن علاقاتها لم تنجح أبدًا ..

إما أن ترفض هى الشاب ، لأنه أنانى أو تافه ، أو يرفضها هو بحجة أنها باردة عاطفيًا ، أو جافة أكثر مما ينبغى ..

كلهم تقريبًا حاولوا تجاوز الحدود معها ..

بل كان كل هدفهم ، منذ البداية ، هو تجاوز تلك الحدود ..

وكان هذا يحنقها دائمًا ..

يحنقها ويغضبها ويثير اشمئزازها إلى أقصى حد ..

وغضبها كان يبعدهم دائمًا ، ويدفعهم إلى ترديد الكثير من الأكاذيب والأقاويل عنها ، حتى لقد اتهمها أحدهم بأنها سادية ، ووصفها بلوح الثلج الخشن ..

ولقد آلمها ذلك الوصف للغاية ، وجعلها تبكى طوال ليلة كاملة ، خاصة وأنها تعلم أنه ليس من السهل أبدًا أن ينسى الآخرون هذا ...

سيُرددون وصفه مرات ومرات دون مراعاة لمشاعرها وآلامها ..

وهذا ما حدث بالفعل ..

أصبحت السخرية منها سمة عامة فى الكلية كلها ، حتى آخر يوم فيها ..

ولم ينته كل هذا إلا مع تخرُجها ، وعملها كمترجمة فى شركة كبيرة للسياحة ..

ومع انهماكها فى عملها هذا .. نسيت كل شىء عن الكلية وسخافاتها ..

وعن الارتباطات ..

حتى ظهر (هانى) ..

و(هانى) هذا أحد زملاء عملها ، وهو شاب وسيم ، طويل ، أنيق باستمرار ، له ابتسامة عذبة ، لا تُفارق شفتيه

قط ، وعينانِ زرقاوان ، تشعر وكأنك تغرق فيهما إلى أعمق الأعماق ، إذا ما تركزتا على وجهك ..

ولقد فعلها معها ثلاث مرات ، فى يوم واحد ..

أولّ يوم تسلم فيه عمله معها ..

فى كل مرة كانت ترفع فيها رأسها إليه ، تجده يتطلّع إليها بعينيه الزرقاوين ..

وفى المرة الثالثة ، وجدته أمامها مباشرة ، والتقت عيناها بعينيه لدقيقة كاملة ، لم ينبس أحدهما خلالها ببنت شفة ..

ودون أن تدرى كيف حدث هذا ، وجدت نفسها جالسة معه ، فى كازينو صغير ، يطلّ على نيل (القاهرة) مباشرة ..

يومها تحدَث كثيرًا وطويلاً ، دون أن يُحاول حتى لمس أصابعها ..

ولأن قواعدها دائمًا صارمة حاسمة حازمة ، فقد تصورّت أن هذا دليل على أنه شاب جاد ومحترم ..

لم يخفق قلبها له فى عنف ، أو تتراقص مشاعرها طربًا من أجله ، كما كانت تصف صديقاتها ، ولكنها راحت تفكر

جديًا فى الموعد المناسب ، الذى يمكن أن يأتى ليخطبها فيه من والدها ..

وكأى بنت ، لم تُفصح عن رغبتها هذه أبدًا ، ولكنها ، فى الوقت ذاته ، راحت تنتظر موعد لقائهما بلهفة واهتمام ، لتسمع من بين شفتيه كلماته الدافئة ، وعباراته الأنيقة ، التى تصف جمالها ورقتها وحُسنها ..

باختصار .. لقد أدمنت مداعباته لروح الأنثى فى أعماقها ..

وفى عملها ، لاحظ الكل هذا ، وأدركوا أنها توليه كل اهتمامها ، على الرغم من أنها تُعتبر من الناحية الوظيفية ، رئيسته المباشرة فى العمل ..

ولكنها لم تبال أبدًا بهذا ..

كانت ثقتها بنفسها تدفعها لتجاهل تعليقات ونصائح الكل ، مادامت مقتنعة بما تفعله ..

ثم جاءت الصدمة بغتة ..

وبلا مقدمات ..

فمنذ بدأ ارتباطها بـ (هانى) ، كانا يتبادلان الرسائل ، عبر شبكة الإنترنت ، فى كل يوم ، تصحبها موسيقى عذبة ، على شاشة الكمبيوتر ..

وكانت هذه أجمل الرسائل التى تصلها عبر الإنترنت ..

وأسعد لحظات حياتها ..

ولكن يبدو أن اللّه (سبحانه وتعالى) لم يشأ تركها طويلاً ، فى جحيم الغش والخداع هذا ، فأعمى عينى (هانى) وقلبه ، وجعله يُرسل إليها رسالة ، كان ينبغى أن يُرسلها إلى أخرى ..

أخرى تُدعى (نهى) ..

فى البداية ، خُيِّل إليها أنه قد أخطأ كتابة اسمها فحسب ..

ثم قرأت الرسالة ..

وتمزَّق قلبها بمنتهى العنف .

كل حرف من حروف الرسالة تحوَّل إلى خنجر حاد ماض ، انغرس فى مشاعرها بلا رحمة أو هوادة ..

ففى رسالته ، كان يبث (نهى) هذه حبه وغرامه ، بنفس الكلمات والعبارت ، التى يُرسلها إليها هى ، ثم يُضيف إلى كل هذا عبارات ساخرة لاذعة ، عن رئيسته المباشرة فى العمل ، وكيف أنه يتظاهر بحبها وغرامها ، حتى يحصل منها على كل الامتيازات والاستثناءات الممكنة ، ويضمن الترقى فى العمل بسرعة أكبر ..

وكانت هذه أجمل الرسائل التى تصلها عبر الإنترنت .. وأسعد لحظات حياتها ..

ولم يمكنها قراءة باقى الرسالة ، مع فيض الدموع ، الذى انهمر أنهارًا من عينيها ..

لقد ذكر اسمها صراحة ، وأضاف إليه الوصف ذاته ، الذى كانوا يستخدمونه فى الكلية ..

لوح الثلج الخشن ..

كان يعرفه منذ البداية ..

ويسخر منها طوال الوقت ..

كم بكت ليلتها !!

كم انهمر من دموعها وكرامتها وأحزانها !!

إنها لم تتصورَّ حتى أنها تمتلك كل هذا القدر من الدموع ..

وعندما أشرقت الشمس ، كانت قد اتَّخذت قرارها بألاَّ تبكى ثانية أبدًا ، من أجل رجل ..

أيًا كان ..

وعندما التقت به فى الشركة ، كان هادئًا مبتسمًا ، على نحو يوحى بأنه لم يُدرك هفوته بعد ..

أو لم يتصورَّ حدوثها ..

وبحنان زائف سخيف ، سألها عن سر تورُّم جفنيها واحمرار عينيها ، و ....

وثارت فى وجهه بكل غضبها وعنفها وسخطها ..

انفجرت تشرح له ما فعله ، وتصف له خسته ونذالته ووضاعته ..

فى البداية صدمه الموقف ، واحمرّ وجهه بشدة ، ثم لم يلبث أن تحولّ بغتة إلى قط شرس ، وراح يُهاجمها بعنف لامثيل له ، ويُردِّد ذلك الوصف البغيض أمام الكل ..

والعجيب أنها ، وهى الضحية ، لم تحتمل هجومه المضاد هذا ..

وانهارت ..

والأعجب أنها قد تقدّمت باستقالتها ، فى اليوم نفسه ، وغادرت الشركة لآخر مرة ..

كانت تشعر بأنها قد فقدت كل شىء فى الدنيا ، وهى تعود إلى منزلها ..

ولكنها لم تبك ..

لم تذرف دمعة واحدة ، على ذلك الذى طعن كل مشاعرها ..

أو حتى على العمل الذى تركته ..

ولأسبوعين كاملين ،رفضت كل محاولات صاحب الشركة ، لإعادتها إلى منصبها ..

كانت ترفض تمامًا العودة إلى نفس المكان ..

حتى بعد أن قاموا بفصل (هانى) ..

لم تعد تحتمل العودة إلى نفس المكان ، الذى تردَّد فيه ذلك الوصف البغيض ، على مسامع الكل ..

إنها واثقة من أن أحدًا لن يُردِّده على مسامعها قط ..

ولكنهم سيتهامسون به فيما بينهم ..

وسيسخرون منه ..

ومنها ..

ولن يمكنها أبدًا أن تحتمل هذا ..

وبعد ثلاثة أسابيع كاملة ، عادت تتصل بشبكة الإنترنت ، التى قاطعتها طوال الوقت ..

ووجدت رسالته ..

أو بمعنى أدق .. رسائله ..

رسائل (نادر) ..

كان من الواضح أنه قد أرسل أولى رسائله في نفس الليلة ، التي غادرت فيها عملها ..

وكانت رسالة رقيقة قصيرة ..

رسالة يواسيها فيها بكلمات تحمل كل رقة وعذوبة الدنيا ، وعبارات تفيض بحنان جارف عجيب ، لم تتصوَّر أن تشعر به أبدًا ، من كلمات مكتوبة على شاشة إليكترونية باردة ..

وفي رسالته الثانية ، كان يُخبرها أنه لاينتظر ردًا على رسائله ، ولكنه شعر برغبة قوية في إرسالها ، ولا يتمنى سوى أن تقرأها مرة واحدة ، ثم تمحوها بعد هذا تمامًا ..

ولقد حاولت محوها بالفعل ..

ولكنها لم تستطع ..

شيء ما في أعماقها منعها من هذا ، وجعلها تُطالع باقي الرسائل ..

كان يتحدَّث طوال الوقت عنها ، وعن رقتها ، ودفء قلبها ، وروعة مشاعرها ، ويُحاول إقناعها بأن ما حدث لايسيء إليها قط ، فهي قد أحبَّت ، ومنحت ، والطرف الآخر هو الذي أهان ذلك الحب ورفضه ..

ولسبب ما ، راحت تقرأ رسائله كلها مرات ومرات ..

وشعرت بالفعل بهدوء نفس كبير ، وهي تُطالع كلماته ..

منطقه الهادئ والبسيط مسّ شغاف قلبها ، ووجد سبيله إلى كيانها ، وداعب روح الأمل ، التي كادت تُدفن في أعماقها ..

لم تكن تعرف عنه سوى اسمه وعنوان بريده الإليكتروني ، الذي نقلته الشبكة تلقائيًا ..

وعلى الرغم من أنها قد بذلت جهدًا كبيرًا لتجاهل الأمر ، وجدت نفسها تُفكِّر فيه ، وتتساءل عن شخصيته ، وماهيته ، وكيف توصَّل إلى معرفة كل هذا عنها ..

ولبعض الوقت ، راودها خاطر مخيف ..

أمن الممكن أن يكون هو نفسه (هاني) ، الذي يُحاول الانتقام والسخرية منها مرة أخرى ؟!

أفزعها الخاطر بشدة ، وأثار الكثير من توترها وعصبيتها ، حتى إنها قامت إلى جهاز الكمبيوتر ، وأرسلت إليه أولّ رسالة ..

رسالة أخبرته فيها بما تخشاه ، بكل الصراحة والوضوح ..

وجاءت إجابته فى سرعة ..

وهلع ..

جاءت ليُخبرها فيها أن مخاوفها لا أساس لها من الصحة وأنه لايمكن أن يفكر مُجرَّد تفكير فى إيذاء مشاعرها ، ولو بهمسة واحدة ، ثم صارحها بأن شقيقه زميل قديم لـ (هانى) ، وبأنه هو نفسه كان أحد زملائها فى الكلية ..

ولقد أفزعتها زمالته القديمة هذه فى البداية ..

ولكن كلماته كانت توحى بالصدق والإخلاص ، حتى إنها تصوَّرت أن الكمبيوتر نفسه قد شعر بها وأحسها .

ولقد أرسلت إليه تعتذر عن شكوكها ، وأجابها هو بأن تلك الشكوك كانت أفضل ما حدث له ، فى حياته كلها ، لأنها دفعتها للكتابة إليه على الأقل ..

ومن هنا ، راحا يتبادلان الرسائل ..

ومع الوقت ، حصلت هى على عمل أفضل ، وتوطدت صلتها به أكثر ، عبر شبكة الإنترنت ، وراحا يتبادلان المعلومات والأفكار ..

وحتى الأحلام والأمنيات ..

ورويدًا رويدًا ، وجدت نفسها شديدة الاهتمام برسائله ، وشديدة اللهفة لقراءتها كل يوم ..

وكثيرًا ما حاولت أن تتذكَّره ، وسط شباب الكلية ..

ولكنها عجزت تمامًا ..

حتى عندما استعانت بصور الحفلات والرحلات ..

كان بالنسبة إليها شخصًا مجهولاً ، تعرف اسمه ..

فقط اسمه ..

ولكنه أفضل شخص عرفته ، فى حياتها كلها ..

شخص رقيق ، دافئ حنون ، مُثقف ، وصريح ..

كل السمات ، التى عاشت تحلم بها منذ الأزل ، فى فارس أحلامها ..

ويوما بعد يوم ، راح (نادر) يتسلَّل إلى أعماقها ، ويغوص فى كيانها ، ويحفر سردابًا عميقًا فى قلبها ..

وذات ليلة ، وهى تنتظر رسالته بلهفة ، وجدت نفسها تعترف بأنها تُحبه ..

تُحبه بكل جوارحها ..

ويا له من حب !

عبر شبكة الإنترنت ..

وبمبادرة منها ، أرسلت إليه صورتها عبر الإنترنت ..

ثم طلبت منه أن يُرسل صورته ..

ولكنه لم يفعل ..

لقد تجاهل الأمر تمامًا على الرغم من أنها قد كرَّرته مرتين ..

ثم بدأت كلماته وعباراته تكتسى بحزن عجيب ..

حزن لم يُفصح عنه قط ، ولكنه أفصح عن نفسه بكل وضوح ، فى كل حرف أرسله إليها ، حتى إنها سألته عنه ..

ولقد أدهشه سؤالها بالفعل ..

أدهشه ، حتى إنه قد أرسل إليها واحدة من أرق رسائله ، يصفها فيه بذات القلب الدافئ ، ويؤكِد لها أن رقتها وحنانها وحدهما أدركا الحزن فى عباراته ..

ولكنه لم يُفصح عن سر ذلك الحزن ..

أبدًا ..

ثم وصلتها منه رسالة عجيبة ..

رسالة رقيقة إلى درجة لم تعهدها ، فى حياتها كلها ..

رسالة تحدَّث فيها ، وكأنه يتحدَّث لآخر مرة ..

رسالة جعلتها تبكى .. وتبكى .. وتبكى .. وتحطَّمت القاعدة ..

ها هى ذى تبكى مرة أخرى ..

من أجل رجل ..

صحيح أنه لم يقل شيئًا محزنًا فى رسالته ، ولكن قلبها قرأ ما لم يكتبه ..

وشعر بما لم يُفصح عنه ..

وبكلِ دموعها ولهفتها ولوعتها ، أرسلت ترجوه أن يُفصح عمًّا يعانُيه ..

ولكنها لم تتلق جوابًا ..

لا فى اليوم الأول ، أو الثانى ، أو حتى العاشر ..

وفى كل يوم ، كانت تبكى ..

وتبكى ..

وتبكى ..

وفى كل ساعة كانت تنتظر رسائله ..

وتنتظر ..

وتنتظر ..

أسبوعان كاملان ، تورمت فيهما عيناها ، وانفطر خلالهما قلبها ، وهى تخشى ألا ترى رسائله مرة أخرى ..

حتى جاءت تلك الرسالة ..

كانت على عكس رسالته الأخيرة ، مفعمة بالأمل والحياة ، على الرغم من سطورها القليلة ، التى قرأتها مرات .. ومرات .. ومرات ..

كان يعتذر عن تأخره فى الإرسال ، ثم يعد بإرسال رسالة أخرى فى المساء ..

يومها امتلأت نفسها سعادة لم تحس بمثلها قط طوال عمرها ..

سعادة شملت كل ذرة فى كيانها ، وجعلتها أشبه بالبدر المنير ، حتى إن كل العاملين فى الشركة الجديدة قد شعروا بهذا ، وأعربوا عن سعادتهم به ، على نحو جعلها أكثر مرحًا وسعادة ، و ...

وحبًّا ..

وفى المساء ، كانت تنتظر الرسالة بكل حب وحنان ولهفة الدنيا ..

ومع دقات العاشرة والنصف وصلت الرسالة ..

وكانت تحمل أكثر من مفاجأة ..

لقد اعترف لها (نادر) بأنه يُحبها ، منذ كانا زميلين فى الكلية ، إلا أنه لم يجرؤ قط على التحدُث إليها ، أو محاولة الاقتراب منها ..

ثم اعترف بأن ملامحه ليست جميلة أبدًا ..

بل ربّما كانت أقرب إلى القُبح ..

وهذا ما منعه من إرسال صورته إليها ..

كان يخشى أن يفقدها لو فعل ..

وهو لن يحتمل هذا أبدًا ..

أما المفاجأة الأخيرة ، فهى أنه كان فى الولايات المتحدة الأمريكية ، يُجرى عملية جراحية بالغة الدقة والخطورة ..

وهذا سر حزن رسائله الأخيرة ..

وسر انقطاعها أيضًا ..

ولكن العملية نجحت ، وتجاوز هو مرحلة الخطر ..

وجرؤ على مصارحتها بكل مشاعره ..

وفى نهاية الخطاب ، أخبرها أنه سيعود على طائرة (مصر للطيران) ، التى تصل مساء الغد ..

ليلتها أيضًا بكت (هبة) ، كما لم تبك من قبل ..

ولكن دموعها هذه المرة كانت تختلف ..

تختلف كثيرًا ..

فقد كانت تحمل العديد من المشاعر المتناقضة ...

بل كل مشاعر الدنيا ..

ولكنها كعادتها ، كانت قد حسمت أمرها ، واتَّخذت قرارها ، عندما أشرقت الشمس ..

وفى مساء اليوم التالى ، كانت تقف فى مطار (القاهرة) ، مرتدية أجمل أثوابها ، وحاملة باقة من الزهور ، لتستقبل (نادر) ..

ربمًا كان قبيحًا بالفعل ، فى مظهره الخارجى ، كما وصف نفسه ..

ولكنه سيظل فى نظرها أجمل رجل فى الدنيا كلها ..

ليس لأنه أرق وأعذب وأصدق وأروع إنسان عرفته فى حياتها كلها فحسب ..

ولكن لأنه أيضًا حبيبها ..

حبيب عمرها .. الوحيد ..

★ ★ ★

اللحن المفقود

(قصة قصيرة)

مستحيل !

ما يطلبونه منه مستحيل تمامًا !

كيف خطر هذا ببالهم ؟!

كيف يجرءون ؟!

لقد فقدها منذ أقل من عام واحد ، وعذاب قلبه وجراحه لم تندمل بعد ، فكيف كانوا بهذه القسوة ، ليطالبوه بلحن جديد ..

مستحيل !

مستحيل !

إنها لم تكن زوجته فحسب ، وإنما محبوبته ، وعشقه ، وروحه ..

الكل كان يعرف قصة الحب الملتهب ، الذى جمع بين قلبيهما طوال عامين كاملين ، قبل أن يرتبطا بالزواج ..

وكانا أسعد زوجين ، عرفهما الحقل الفنى ، عبر تاريخه الطويل ..

حياتهما كانت قصة حب لا تتوقَّف أو تنتهى ..

قصة حب أثارت إعجاب الكل ..

ودهشتهم ..

وحسدهم ..

وحقدهم أيضًا ..

فالعديدون اندسوا فيها ، وحاولوا إفسادها مرات ومرات ..

ومن أعماق حقدهم الأعمى ، خرجت الأقاويل والشائعات ..

فى البداية نسبوا إليه خيانات عاطفية ، لم ترد بخاطره قط ..

وعندما سخرت هى من هذا ، انقلبوا إلى وسيلة أخرى ،

فأشاعوا أن حبها له زائف ، وأنها تتظاهر به ، وتبالغ فيه ، لتحظى بألحانه وموسيقاه الرائعة ..

ليجعل منها نجمة ..

بل وتمادوا ليشيعوا وجود علاقة حب ، تربطها بممثل شاب ، فى مثل عمرها ، وأنهما يلتقيان كثيرًا من خلف ظهره ..

وحان دوره هو ليسخر من كل هذا ..

الأغبياء لايدركون كم يحبها وتحبه ..

لايعلمون أن علاقتها واتصالاتها بذلك الممثل الشاب ضرورية ، لأنهما يستعدان للقيام ببطولة فيلم غنائى جديد ..

مجردُ علاقة عمل لا أكثر ..

ولكنهم لايفهمون ..

ولايدركون ..

وها هم أولاء الآن يطلبون منه لحنًا جديدًا ، لأغنية شبابية مرحة ، بحجة مرور عام كامل على مصرعها فى حادث سيارة ..

وعلى احتياجه الحتمى لأجر اللحن الجديد ..

وربما كانوا على حق فى النقطة الأخيرة ..

عام بلا عمل ، استهلك كل مدخراته ، والتهم كل استثماراته ، وتركه مع ما يكفى لإبقائه حيًا فحسب ..

ربما كان بحاجة شديدة للمال بالفعل ..

ولكن مستحيل !

لن يمكنه أن يصنع لحنًا واحدًا ، وهى تحتلّ كل قلبه ..

مازالت تحتلّ كيانه كله ، كما لو أنها مازالت على قيد الحياة ..

لا يمكنه نسيانها يومًا واحدًا ..

أو حتى لحظة واحدة ..

لقد قضت معه عدة شهور ، ولكنها غرست نفسها فى كل خلية من خلاياه ..

إنه يشعر بها ..

يراها ..

يسمعها ..

ولكن بعقله وقلبه فقط ..

لا .. لن يمكنه تلحين جملة موسيقية واحدة بدونها ..

ومن المستحيل أن يمنحهم لحنًا هزيلاً ركيكًا ، بعد كل ما حققه من شهرة ومكانة !

مستحيل !

مستحيل !

ترك دموعه تنهمر على وجهه ، وهو يلتقط العود الأثرى ، الذى ورثه عن والده الراحل ، وينحّيه جانبًا ، ثم يتجه إلى حجرتها ..

كثيرًا ما جلس فى تلك الحجرة لساعات وساعات ، يتأمّل كل ما لمسته أصابعها فى حياتها ..

أثوابها ..

أدوات تجميلها ..

مجوهراتها ..

وحتى أوراقها ..

وفى حجرتها ، لم يستطع كبح مشاعره ، فانفجر باكيًا ، وهو يلقى جسده على أقرب مقعد إليه ..

لا يمكنه احتمال فقدها ..

لا يمكنه أبدًا ..

بكى طويلاً ، لساعة أو يزيد ، قبل أن يجفّف دموعه ، ويطرد فكرة اللحن الجديد تمامًا من ذهنه ..

وفى حزن دافئ ، فتح درج مكتبها الصغير ، ليطالع آخر صورها ، و ...

وفجأة ، سقط شىء ما بين قدميه ..

مفكرة وردية صغيرة ، كانت تختفى أسفل الدرج ، وسحبها هو بيده دون أن يدرى ..

وفى بطء ، انحنى يلتقط تلك المفكّرة الصغيرة الوردية ، التى تحمل على واجهتها قلبًا كبيرًا بارزًا ..

يا للرقة والنعومة !

هكذا ذوقها دائمًا ..

ناعم ، رقيق ، أنيق .. متميزٌ ..

وبقلب مرتجف ، فتح المفكَرة ، وألقى نظرة على ما بداخلها ..

إنها يومياتها ..

الأحداث التى تعيشها ، وتدوِّنها بخطها الرقيق الصغير يومًا فيومًا ..

وخفق قلبه فى عنف ..

إنه يقرأ ، ولأوَّل مرة فى حياته ، ما كتبته هى عن نفسها ..

عن حياتهما ..

وحبهما ..

ومع دقات قلبه القوية ، راحت عيناه تلتهمان كلمات المفكِرة الوردية ..

واتسعت عيناه عن آخرهما ..

لقد كتبت بيدها وخطها يوميات قلبها وحبها ..

كتبت اسمها ..

واسمه ..

واسم ذلك الممثل الشاب ..

وكان كل سطر فى مفكرتها يحمل حبًّا بلا حدود ..

ولكنه حب لم يملأ قلبه بالسعادة ..

بل بالذعر ..

وطوال الليل ، راح يقرأ يومياتها ومشاعرها ..

ويقرأ ..

ويقرأ ..

ومع أولى نسمات الفجر ، التقط عوده الأثرى ، وراح يضع أولى نغمات لحنه الجديد ..

اللحن الذى فقد ، طوال عام كامل ..

دون مبررٍ ..

وعندما استقبل الجمهور لحنه الجديد بإعجاب جارف ، بعد عدة أيام فحسب ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة سعادة جارفة ..

ابتسامة لاتحمل أثرًا للحزن ..

أدنى أثر .

* * *

١ ـ زيـارة مفاجئـة ..

من المؤكَّد أن (غـادة) ، زميلـة (نديم فوزى) ، فـى مكتب المحاماة ، لم تشـهد زحامًـا ، فـى منطقـة وسـط المدينة ، مثلما شهدته فى ذلك الصباح الحار ، وهى تـدور بسيارتها ، وتدور ، وتدور ، بحثًا عن موقع واحد للانتظار ..

ولقد استغرق منها هذا الأمر نصف ساعة كاملة ، قبل أن تجد مكانًا منزويًا لسيارتهـا ، احتاجت إلى عشر دقائق كاملة ، لتصل إليه وتغادر سيارتها ، هاتفة فى حنق :

ـ يا إلهى ! ماذا يردون منا بالضـبط ؟! أن نتحـوَّل إلـى بهلوانات ؟!

ضحك منـادى السيارات القريب لعبارتهـا ، وعلَّق فـى سخرية :

ـ أمـر طبيعى يا سيِّدتى .. البهلـوان وحده يمكنـه قيادة سيارته فى وسط المدينـة .

زفرت مغمغمة :

ـ الواقع أن الازدحام قد بلغ حدًّا غير محتمـل .. لابد من وجود حل له ، قبل أن يأتى يوم ، لانجد فيه موضعًا لقدم .

ابتسم الرجل ، قائلاً :

ـ اطمئنى يـا سيِّدتى .. أعتقد أن المشكلة ستجد حلاً جذريًا ، خلال عام واحد على الأكثر .

ابتسمت ساخرة ، وهى تغلق سيارتها ، قائلة :

ـ يا لك من متفائل !

هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ ليس للأمر علاقة بالتفاؤل .. إنهم ينشئون هنا جراجًا متعدِّد الطوابق بالفعل ، يمكنـه استيعاب ما يقرب من ثلاثين ألف سيارة .

ارتفع حاجباها فى دهشة ، وهى تهتف :

ـ هنا .. فى وسط المدينة ؟!

أشار بيده إلى منطقة قريبة ، قائلاً :

ـ نعم يـا سيِّدتى .. هل ترين ذلـك المبنـى ذا الطـابقين هناك ؟ المبنى القديم الطراز .. إنهم يبدءون فى هدمه بالفعل ،

وعلى مساحة أرضه الضخمة ، سيقيمون مبنى من ثلاثين طابقًا .. بالإضافة إلى ثلاثة طوابق تحت أرضية ، وسيتم استغلال تلك الطوابق الثلاثة ، بالإضافة إلى أربعة من طوابق المبنى ، كجراج متعددّ الطوابق ، أما الطوابق الباقية ، باستثناء معظم الطابق الأرضى ، فستحتلّها شركات ومؤسسات خاصة شهيرة .

سألته فى اهتمام :

ـ وماذا عن الطابق الأرضى ؟!

بدا متهلّلاً على نحو أدهشها ، وهو يلوّح بذراعيه ، مجيبًا :

ـ هذه هى المفاجأة .. إنهم سينشئون هنا مجمعًا تجاريًا عملاقًا ، يمكنك أن تجدى فيه كل شىء .. من الإبرة إلى الصاروخ .

ارتفع حاجباها بدهشة ، وهى تحدّق فيه بحيرة تمتزج بالشك والتساؤل .. تُرى كم تبلغ تكلفة مشروع عملاق كهذا ؟!

كم ؟!

كم ؟!

« نصف مليار جنيه على الأقل !!

نطق (نديم) الجواب فى هدوء ورصانة كعادته ، وهو يجلس خلف مكتبه الأنيق ، عندما روت له الأمر كله ، فارتفع حاجباها بدهشة كبيرة ، وهى تهتف مستنكرة :

ـ نصف مليار جنيه ؟! يا إلهى ! ومن يمتلك مثل هذه الثروة الهائلة ؟

شبك أصابع كفيه أمامه ، وهو يجيب بنفس الهدوء :

ـ ربما هى مجموعة من المستثمرين .

هتفت بنفس الدهشة :

ـ وكم سيربحون من مشروع كهذا ؟!

صمت بضع لحظات ، وهو يتطلّع إليها بملامح جامدة خاوية ، قبل أن يجيب فى بطء يوحى بتفكير عميق :

ـ ربما لايعنيهم هذا كثيرًا .

أدهشها الجواب ، فحدّقت فيه بدهشة ، مغمغمة :

ـ ماذا تعنى يا (نديم) ؟!

أتاهما صوت هادئ رصين وقور ، يجيب :

- إنه يشير إلى عملية غسيل الأموال القذرة يا بنيتى .

التفتت (غادة) فى دهشة مستنكرة إلى مصدر الصوت ، فى حين نهض (نديم) من خلف مكتبه ، وهو يبتسم فى هدوء قائلاً :

- مرحبًا يا سيادة اللواء .. كم تدهشنا وتسعدنا زيارتك المفاجئة هذه .

ارتسمت ابتسامة باهتة ، على شفتى اللواء (حلمى) ، وهو يلوّح بملفٍ صغير فى يده ، ويهزّ كتفيه ، قائلاً :

- معذرة لدخولى بهذا الأسلوب ، الذى يفتقر إلى اللياقة ، ولكن عم (أحمد) لم يكن هنا ، وأنا فى عجلة من أمرى ، و....

قاطعه (نديم) ، وهو يتجه إليه ، ويصافحه فى حرارة حقيقية :

- أنت على الرحب والسعة دومًا يا سيادة اللواء .

وابتسمت (غادة) ، فى محاولة لإخفاء توترها ، وهى تغمغم :

- بالتأكيد ..

واصل اللواء (حلمى) ابتسامته الباهتة ، وهو يتجه إلى مقعد قريب ، قائلاً :

- الواقع أننى كنت فى الجوار ، ورأيت أن أزوركما بعض الوقت .

ربَّت (نديم) على ركبته ، قائلاً بابتسامة ودود :

- أهلاً بك فى أى وقت يا سيادة اللواء .

اكتسبت ابتسامة اللواء (حلمى) بعض الحرارة ، وقال ، وهو يضع الملف على مكتب (نديم) :

- الحقيقة أن رؤيتك تسعدنى دومًا يا (نديم) ، فأنت واحد من أفضل تلاميذى ، وأكثرهم كفاءة وبراعة .

قالت (غادة) ، فى شىء من الحذر :

- كان هذا فيما مضى يا سيادة اللواء .

ابتسم اللواء (حلمى) ابتسامة كبيرة ، قائلاً :

- ربما اختلفت الوسائل والمسميات ، ولكن الهدف مازال واحدًا يا بنيتى .

وأدار عينيه مرة أخرى إلى (نديم) ، مستطردًا :

ـ أليس كذلك ؟!

ابتسم (نديم) ، وتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .

رمقت (غادة) (نديم) بنظرة جانبية دون تعليق ، وتراجعت فى مقعدها بدورها وعقدت ساعديها أمام صدرها ، فى انتظار الخطوة التالية ..

ولم يطل انتظارها ، فما إن ساد السكون لحظة ، حتى تنحنح اللواء (حلمى) ، واعتدل فى مقعده ، قائلاً :

ـ الواقع أنه هناك قضية تقلقنا بشدة ، فى الآونة الأخيرة .

سأله (نديم) فى اهتمام :

ـ أية قضية ؟!

هزَّ اللواء (حلمى) كتفيه ، قائلاً :

ـ نفس ما كنتما تتحدثان حوله الآن .. قضية غسيل الأموال القذرة(*) .

وتنحنح مرة أخرى ، قبل أن يتابع :

ـ من العجيب أن هذا الأمر قد انتشر على نحو مخيف ، فى السنوات العشر الأخيرة ، وخاصة مع تكثيف الحملات ضد تجار ومهربى المخدرات ، ومحاصرة مزورى العملة ، وتشديد الرقابة على الحدود ، والمشكلة أنه ليست لدينا قوانين للرقابة على إيرادات البنوك ، مثل تلك المطبعة فى الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً ، والتى تحظر إيداع مبلغ يزيد على عشرة آلاف دولار ، دون تحديد مصدره بدقة(**) ، مما أحدث فوضى فى الإيداعات ، أدت إلى ظهور عدد مفاجئ من المليونيرات ورجال الأعمال ، أنشئوا عشرات المشروعات العملاقة ، دون تحديد مصادر ثرواتهم .

(*) غسيل الأموال القذرة : مصطلح يُستخدم للتعبير عن استخدام النقود ، التى يتم ربحها من تجارات غير مشروعة ، مثل تزوير النقد ، أو تجارة المخدرات والسلاح ، لإنشاء مشروعات رسمية وقانونية ، تدرّ أرباحًا كبرى ، على نحو واضح علنى ومشروع ، بحيث تختفى الأرباح غير المشروعة ، وسط الأرباح المشروعة ، ولقد اتخذت كل الدول إجراءات صارمة ، للحد من عمليات غسيل الأموال القذرة ومقاومتها ، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية .

(**) حقيقة .

غمغم (نديم):

ـ أمر مخيف بحق يا سيادة اللواء .

تنهدَ اللواء (حلمى) ، وقال :

ـ نحن لا نستطيع بالطبع ملاحقة كل هؤلاء ، ومراقبتهم ، لكشف حقيقة نشاطاتهم ، ومامن وكيل نيابة سيسمح بالتنصُّت على محادثاتهم الهاتفية ، أو تسجيل اجتماعاتهم ، لأن ..

صمت لحظة ، قبل أن يتطلَّع إلى عين (نديم) مباشرة مضيفًا :

ـ لأن القانون يحظر هذا .

ارتفع حاجبا (غادة) فى دهشة ، وخيِّل إليها أنها قد فهمت ما يرمى إليه اللواء (حلمى) ، فى حين ابتسم (نديم) بنفس الرصانة ، قائلاً :

ـ بالتأكيد .

تنهَّد اللواء (حلمى) على نحو يوحى بأنه يحمل فى أعماقه كل هموم الدنيا ، قبل أن يشير بيده ، متسائلاً فى شىء من الحذر :

ـ هل تعرف اسم (رشاد السلباوى) يا (نديم) ؟!

بدا الاسم مألوفًا لـ (غادة) ، فانعقد حاجباها فى شدة ، وهى تعتصر ذهنها لتتذكر أين سمعته أو قرأته ، أما (نديم) ، فقد أجاب بهدوء عجيب :

ـ بالطبع .. (رشاد السلباوى) اسم يتردَّد كثيرًا ، فى الآونة الأخيرة ، فهو رجل أعمال ، أقام فى الولايات المتحدة الأمريكية لربع قرن تقريبًا ، ثم عاد إلى (مصر) ، ليقيم عددًا من المشروعات الضخمة ، مثل القرى السياحية فى الساحل الشمالى ، وساحل البحر الأحمر ، وشركات الاتصالات ، والمراكز التجارية العملاقة ، وغيرها .

أومأ اللواء (حلمى) برأسه موافقًا ، وأضاف :

ـ وهو صاحب ذلك المبنى ، الذى يضمّ جراجًا متعدِّد الطوابق ، على مقربة من هنا .

هتفت (غادة) :

ـ هو صاحبه ؟! آه تذكَّرت الآن أين قرأت الاسم .. كان مكتوبًا على لافتة كبيرة ، معلَّقة على المبنى الذى يتمّ هدمه .

لم يعلِّق اللواء (حلمى) على عبارتها ، وإنما تنهَّد مرة أخرى ، تلك التنهيدة الملتهبة ، فمال (نديم) وحده ، وسأله على نحو مباشر :

ـ ما الذى يقلقكم بشأن (رشاد السلباوى) يا سيادة اللواء ؟!

هزَّ اللواء (حلمى) رأسه ، قائلاً :

ـ الرجل سليم ونظيف ، من الناحية القانونية ، ومشروعاته كلها مقاومة بإجراءات وأوراق سليمة ، ولكن ..

توقَّف عند هذه النقطة ، وبدا عليه توتر أكثر ، جعل (نديم) يسأله فى بطء :

ـ ولكن ماذا ؟!

لوَّح اللواء (حلمى) بذراعه ، وكأنما يشعر بالحيرة ، قبل أن يضيف :

ـ إننا لا نعرف شيئًا عن مصدر ثروته الضخمة هذه ، فقد عاد من الولايات المتحدة الأمريكية ، ليفتح حسابًا فى أحد البنوك ، بربع مليون دولار فحسب ، وبعدها وصلته

ملايين الدولارات ، عن طريق تحويلات بنكية مباشرة ، من دول (أمريكا اللاتينية) ، التى لا توجد بها تشريعات لتقنين الإيداع النقدى بالبنوك .

غمغم (نديم) :

ـ هذا قانونى تمامًا .

أشار إليه اللواء (حلمى) ، قائلاً :

ـ بالضبط .. والمثير للانتباه والاهتمام ، وهو أن المبالغ التى وصلته ، والتى لا تتجاوز ستة ملايين من الدولارات ، كانت آخر ماوصله من تحويلات ، إذ أصدرت تلك الدول ، فى (أمريكا اللاتينية) تشريعات جديدة ، جعلت تحويل مثل هذه المبالغ الضخمة أمرًا مستحيلاً ، وعلى الرغم من هذا ، فقد بدأ فى إقامة مشروعات عملاقة ، تتكلف عشرات الملايين من الدولارات ، بما يفوق مركزه المالى عدة مرات .

سأله (نديم) فى اهتمام :

ـ ولماذا لم يتمَّ سؤاله عن مصدر أمواله ؟!

تنهَّد اللواء (حلمى) ، قائلاً :

ـ الرجل له نشاط اجتماعى وسياسى كبير ، وصلاته بعدد من كبار المسئولين ، تضفى عليه نوعًا من الحصانة غير الرسمية ، بحيث لايمكننا توجيه أيـة اتهامـات إليـه ، دون أدلة قوية حاسمة ، لاتقبل الشك .

ثم تراجع على مقعده ، ورمق (نديم) بظرة جانبيـة ، مضيفًا :

ـ ولايمكننـا أن نحصل على تلك الأدلـة ، بشكل قانونى محض .

تراجع (نديم) بدوره ، وهو يقول فى بطء حذر :

ـ يمكننى استيعاب هذا .

نقلت (غادة) بصرها بينهما فى دهشة عارمـة ، وهى تتساءل : ما الذى يحدث بالضبط ؟!

ما الذى يحاول اللواء (حلمى) إبلاغه لـ (نديم) ؟!

تُرى هل .... ؟!

قبل أن يكتمل التساؤل فى أعماقها ، كان (نديم) يسـأل فى اهتمام :

ـ أهذه نقطة الشك الوحيدة ؟!

هزَّ اللواء (حلمى) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـ كـلاً .. هنـاك أيضـًا تـلك الأمـوال الطـائلة ، التى يقـوم (رشاد السلباوى) بتحويلها إلى حساب شركته ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهى شركة بدأت صغيرة بسيطة ، ثـم لم تلبث أن تحولّت ، بفضل تحويلاته الضخمة ، إلى شركة من أكبر شركات (لوس انجلوس) ..

غمغم (نديم) ، وكأنه يحدّث نفسه :

ـ والأموال التى يتمّ تحويلها من هنـا ، تعتبر بالنسبة للقانون الأمريكى ، واردة من مصدر معلوم ، ولاجنـاح على إيداعها هناك .

هتف اللواء (حلمى) :

ـ بالضبط .

ثم نهض من مقعده ، ودار حول مكتب (نديم) ، وهـو يضيف :

ـ إنها باختصار ، عملية تهم اقتصاد (مصر) كله ، وأمنها

وسلامتها على المدى الطويل ، ولكنها لعبة تتمّ على نحو قانونى ماكر ، بحيث نعجز نحن ، كجهاز أمن رسمى ، عن التصدّى لها ، ولكن ..

امتدّت يده فى هدوء ، نحو جزء خفى من الجدار ، خلف مكتب (نديم) مباشرة ، وضغطه فى رفق ، وهو يوليه ظهره مكملاً :

- ربما كان هناك من يمكنه السعى وراء العدالة ، دون التقيد بكل تعقيدات القانون .

كاد قلب (غادة) يقع بين قدميها ، عندما انكشفت تلك الفجوة فى الجدار ، إثر ضغطة اللواء (حلمى) ، ليظهر خلفها زىٌ أسود اللون ، مع قناع من اللون نفسه ، لم يلق عليهما اللواء (حلمى) نظرة واحدة ، وهو يبتسم مكررًا :

- ربما .

قالها ، وغادر المكتب بخطوات ثابتة قوية ، دون أن يحاول الالتفات إلى زى (العقرب) لحظة واحدة ، فى حين حبست (غادة) أنفاسها بقوة ، حتى أغلق الباب خلفه ، فهتفت فى ذعر :

امتدّت يده فى هدوء ، نحو جزء خفى من الجدار ، خلف مكتب (نديم) مباشرة ، وضغطه فى رفق ..

ـ رباه ! إنه يعرف كل شىء .

ارتسمت ابتسامة على شفتى (نديم) ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

نطقها ، ثم التفت إلى ذلك الملف ، الذى تركه اللواء (حلمى) عمدًا على سطح مكتبه ، وفتحه ليلقى نظرة على محتوياته ، قبل أن تتسع ابتسامته فى ثقة وارتياح ..

فالملف كان يضمّ كل المعلومات الممكنة عن الهدف الجديد ..

عن (رشاد) ..

(رشاد السلباوى) .

* * *

٢ ـ عودة (العقرب) ..

« كل شىء قانونى تمامًا .. »

نطق (إدوارد) ، محامى (رشاد السلباوى) العبارة فى خبث ، وهو يبتسم ابتسامة واسعة عريضة ، ويغمز بعينه ، مضيفًا :

ـ حتى الشحنة الأخيرة ، التى وصلت إلى الجمارك صباح اليوم ، أوراقها كلها سليمة تمامًا .

غمغم (رشاد) فى خشونة :

ـ أمر طبيعى .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى صرامة :

ـ المهم ألا نفقد ورقة واحدة .

اتسعت ابتسامة (إدوارد) ، وهو يقول :

ـ لاتوصنى .. أنا أعرف كل شىء ، وأشرف عليه بنفسى .

تمتم (رشاد) فى اقتضاب :

ـ عظيم .

وعاد يخفى وجهه بين الأوراق التى يطالعها ، متابعًا :

ـ أخبرنى عندما تصبح الشحنة كلها فى مخازننا ، وأبلغ شركاءنا فى (لوس أنجلوس) ، أننا سنقوم بتحويل المبلغ المعتاد إليهم ، فى نهاية الأسبوع .

تساءل المحامى ، فى شىء من الخبث :

ـ مليونا دولار كالمعتاد ؟!

أجابه (رشاد) فى صرامة

ـ أنت تعرف أكثر منى .

ران عليهما الصمت بضع دقائق ، بعد هذه العبارة الأخيرة ، انشغل خلالها (رشاد) ، أو تشاغل ، بمطالعة بعض أوراقه ، وكأنما يُعلن محاميه بانتهاء المقابلة ، إلا أن هذا الأخير لم يبارح مقعده ، وإن لاذ بالصمت أيضًا ، وظلّ يتطلّع إليه بنظرة صارمة غاضبة ، قبل أن يقطع الصمت بغتة ، قائلاً :

ـ بلغنى أنك تنوى ترشيح نفسك ، فى انتخابات مجلس الشعب القادمة .

انعقد حاجبا (رشاد) فى شدة ، وكأنما بوغت بالعبارة ، لم يلبث أن خلع منظاره بنفس البطء ، الذى رفع به عينيه إلى المحامى ، قائلاً فى شىء من الشراسة ، لم يستطع كبحه :

ـ وماذا فى هذا ؟!

قال المحامى بصرامة :

ـ كان ينبغى أن تستشير الأصدقاء فى (لوس أنجلوس) أولاً .

زمجر (رشاد) ، قائلاً فى حدة :

ـ وما شأنهم بأمر كهذا ؟! من الطبيعى أن أسعى بكل السبل ، لدعم موقفى هنا ، وعضوية مجلس الشعب تمنحنى حصانة قانونية ، وسلطة كبرى ، يحتاج إليها العمل .

هتف المحامى :

ـ خطأ يا (رشاد) بك .. خطأ .. عضويتك لمجلس الشعب ستضعك فى دائرة الضوء ، وتحت اهتمام ورقابة رجال الصحافة ، الذين كشفوا من قبل تورّط بعض أعضاء مجالس الشعب السابقة فى تجارات غير مشروعة ، مما دفع المجالس إلى سحب عضويتهم ، وتقديمهم للمحاكمة(*) .

صاح (رشاد) ، وهو ينهض من خلف مكتبه بحركة حادة :

(★) حقيقة .

ـ أغبياء ! الصحافة لن تتوقَّف عن النبش خلفنا ، سواء أكنت عضوًا فى مجلس الشعب أو لا ، وربما كان هؤلاء الأصدقاء الأمريكيون عباقرة فى مضمارهم ، ولكنهم يجهلون كل شىء عن طبيعة شعبنا وحياتنا ، ولايدركون أن حصانة كهذه تمنحك القوة على تجاوز كل القوانين ، و ....

قاطعه فجأة أزيز جهاز الاتصال الداخلى الخاص على مكتبه ، فبتر عبارته بغتة ، على الرغم من احتقان وجهه ، وضغط زر الاتصال ، قائلاً بصوت مختنق ، لم يفارقه الانفعال بعد :

ـ ماذا هناك يا (نسرين) ؟!

أجابته سكرتيرته الحسناء ، فى صوت خافت حذر :

ـ معذرة يا (رشاد) بك ، ولكن هنا شخص يصرّ على مقابلتك شخصيًا .

هتف فى حدة :

ـ مقابلتى أنا ؟! ومن هو بالضبط ؟!

صمتت لحظة ، قبل أن تجيب فى حذر :

ـ محام شاب ، يُدعى (نديم فوزى) .

قال فى عصبية :

ـ (نديم فوزى) ؟! وماذا يريد محام شاب منى شخصيًا ؟! لماذا لم يلتق بأحد أفراد الشئون القانونية ؟!

لم يكد (إدوارد) يسمع اسم (نديم) ، يتردَّد على شفتى (رشاد) ، حتى انتفض جسده فى عنف ، وهبَّ من مقعده بوثبة مباغتة ، وأمسك يد (رشاد) ، هاتفًا بصوت مبحوح ، يموج بالانفعال :

ـ دعه ينتظر لحظة .

حدَّق فيه (رشاد) بدهشة مستنكرة ، فتابع (إدوارد) ، وهو يضغط زر إنهاء الاتصال ، مستطردًا فى توتر :

ـ أريد منك أن تلتقى به .

انعقد حاجبا (رشاد) فى غضب ، ولكنه عاد يضغط زر الاتصال ، قائلاً لسكرتيرته :

ـ فليكن .. دعيه ينتظر بضع لحظات ، وسألتقى به فورًا .

ثم أنهى الاتصال ، وهو يلتفت إلى محاميه ، هاتفًا فى حنق :

- ما معنى هـذا بالضـبط ؟! لمـاذا تريد أن ألتقى بمحام شاب تافه ؟!

تراجع (إدوارد) ، وأشعل سيجارته فى عصبية ، وهو يقول :

- (نديم فوزى) محام شاب بالفعل ، ولكنـه ليس تافهًا أبدًا .. وزيارته لك شخصيًا ، تعنـى أنـه قد وضعك علـى قائمته ، وهذا أمر مقلق للغاية .

حدَّق (رشاد) فيه بدهشة ، قبل أن يهتف ساخطًا :

- ما الذى يعنيه كل هذا بالضـبط ؟! تتحدَّث عن ذلـك المحامى الشاب ، وكأنه (سوبرمان) مثلاً .

هزَّ المحامى رأسه ، وهو ينفث دخان سيجارته فى توتر ، قائلاً :

- إنه ليس كذلك بالتأكيد ، ولكنه أيضًا شخصٌ لا يستهان به .. ربما تجده شابًا هادئًا ، رصينًا ، بسيطًا ، عندما تلتقى به فى شخصيته المعلنة ، ولكننى واثق من أنه لنَ يـروق لك أبدًا أن تلتقى به ، فى شخصيته الأخرى .

حدَّق (رشاد) فيه بدهشة أكبر ، وهو يقول :

- شخصية أخرى .. أهو مصاب بازدواج فى الشخصية ؟!

ابتسم (إدوارد) فى سخرية عصبية ، نفث بها دخان سيجارته مرة أخرى ، قبل أن يجيب :

- نعم .. ولكنه ازدواج لن يروق لك أبدًا .. ازدواج مـن نوع بالغ الخطورة ، فما إن يستثير حماسه أمر مـا ، حتى يتحوَّل إلى ...

ومال نحو (رشاد) بشدة ، مضيفًا :

- عقرب .

اتسعت عينا (رشاد) أكثر ، وحملت ملامحه بلاهة لايتميَّز بها أبدًا ، فتراجع (إدوارد) ، قائلاً :

- دعك مـن التفكير الطويل ، فلنلتق بـه أوَّلاً ، لنعرف ماذا يريد منا ، ثم أشرح لك كل شىء فيما بعد .

بقى (رشاد) على دهشته لحظات ، ثم لم يلبـث أن هزَّ رأسه ، وكأنما ينفض عنه كل هذا ، قبـل أن يشير بيده ، قائلاً :

- فليكن .. سنلتقى به .

نطقها بتوتـر شديد ، لـم يفارقـه لحظـة واحدة ، وهـو يستقبل (نديم) فـى مكتبـه ، ويفحصـه من قمـة رأسـه ، وحتى أخمص قدميه ، متسائلاً فى حذر :

ـ أهلاً يا سيِّد (نديم) .. هل لى أن أعرف سر هذه الزيارة المفاجئة ، وسر إصرارك على مقابلتى شخصيًّا ؟!

جلس (نديم) على المقعد المواجه لمكتب (رشاد) ، دون أن يدعوه هذا الأخير لذلك ، ورمق (إدوارد) ، الذى يقف عند النافذة صامتًا ، بنظرة لا مبالية ، وهو يقول :

ـ لقد أقمت دعوى قضائية ضدك يا سيِّد (رشاد) ، وأردتك أن تعرف بأمرها ، قبل أن تصلك عريضة الدعوى رسميًّا .

انعقد حاجبا (إدوارد) فى توتر ، غير مصدِّق أن يكون هذا هو السبب الحقيقى لزيارة (نديم) ، فى حين قال (رشاد) فى عصبية :

ـ دعوى قضائية ؟! بشأن ماذا ؟!

هزَّ (نديم) كتفيه فى بساطة ، قائلاً :

ـ إنك تفسد البيئة ، بذلك المبنى الحديث الضخم ، الذى ستقيمه فى وسط المدينة ، فطرازه جزء من التلوث البصرى ، و ....

قاطعه (رشاد) فى حدة :

ـ هذا فقط ؟!

ابتسم (نديم) ابتسامة غامضة ، استفزَّت الرجل أكثر ، فهبَّ من خلف مكتبه ، مستطردًا فى غضب :

ـ هل طلبت مقابلتى شخصيًّا ، لسبب تافه كهذا ؟!

اتسعت ابتسامة (نديم) ، وهو ينهض فى هدوء ، قائلاً :

ـ هل تعتبر تشويه البيئة سببًا تافهًا يا سيِّد (رشاد) ؟

انعقد حاجبا (رشاد) فى ثورة ، وتجاهل إشارة (إدوارد) المتوترة ، وهو يضغط زر جهاز الاستدعاء على مكتبه ،قائلاً :

ـ إنه كذلك بالتأكيد .

لم تمض لحظة على ضغطة الزر ، حتى ظهرت السكرتيرة (نسرين) على عتبة الحجرة ، بصحبة اثنين من رجال أمن الشركة ، أشار إليهما (رشاد) ، قائلاً فى حدة :

ـ اصطحبا السيد (نديم) للخارج .

تحرَّك الحارسان نحو (نديم) بعدوانية ظاهرة ، إلا أنه ظلَّ على هدوئه ، وهو يتجه إلى الباب ، قائلاً :

ـ ستصلك عريضة الدعوى بعد غد على الأكثر .

صاح (رشاد) فى حدة :

ـ لا تسمحوا له بمقابلتى مرة أخرى .

احتقن وجه (إدوارد) ، والحارسان يصطحبان (نديم) خارج الحجرة ، وما إن أغلقا الباب خلفهما ، حتى قال فى حدة عصبية :

ـ خطأ يا (رشاد) بك .. خطأ .. ما كان ينبغى أن تفقد أعصابك أبدًا .

صاح (رشاد) :

ـ ألم تسمع ما قاله ذلك الوقح ؟!

قال (إدوارد) فى توتر :

ـ (نديم) لم يكن هنا ليبلغك بأمر دعوى كهذه حتمًا .. إنه يحاول دراسة شخصيتك وردود أفعالك .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلّع إلى المقعد الذى غادره (نديم) منذ لحظات ، مضيفًا فى عصبية :

ـ أو أن له هدفًا آخر .

ازداد انعقاد حاجبيه ، عندما بلغ هذا الحد من التفكير ، واندفع يلتقط جهاز الهاتف الداخلى ، ويضغط أزراره فى سرعة ، ثم يقول :

ـ (جابر) .. اسمعنى جيّدًا .. هناك محام شاب سيغادر المكان الآن .. أرسل خلفه أحد رجالنا .. أريد أن أعرف أين سيذهب ، ومن سيقابل .. نعم .. أريده أن يلازمه كظله ، حتى إشعار آخر .. اسمعنى أيضًا .. أريد منك أن تصعد بنفسك ، لفحص حجرة مكتب (رشاد) بك .. نعم هناك احتمال لايمكن تجاهله .

لم يكد ينهى المحادثة ، حتى هتف (رشاد) فى غضب :

ـ يفحص مكتبى ؟! أى هراء هذا ؟! ما الذى تتوقّعه بالضبط ؟! أجهزة تنصُّت ؟!

قال (إدوارد) فى صرامة عصبية :

ـ ولِمَ لا ؟!

اتسعت عينا (رشاد) فى ارتياع ، وهو يهتف :

ـ يا إلهى ! أهذا ممكن ؟!

بدا المحامى أشبه بالشيطان ذاته ، وهو يدير عينيه فى الحجرة بتوتر بالغ ، قائلاً :

ـ إنه أحد الاحتمالات القوية ، وإلا فلماذا جاء (نديم) لمقابلتك شخصيًا ؟! لماذا ؟!

نعم أيها المحَامى الثعلب ..

هذا هو السؤال ..

لماذا جاء (نديم) ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

* * *

« لقد أرسلوا من يتبعك بالفعل .. »

نطقتها (غادة) فى سخرية ، وهى تختلس النظر ، من خلف ستارة النافذة السميكة ، إلى الرجل الذى يقف على الإفريز المواجه للبناية ، متظاهرًا باللامبالاة ، وهو يراقب المكان جيدًا ، فابتسم (نديم) فى هدوء ، وهو يقول :

ـ عظيم .

سألته فى دهشة مستنكرة :

ـ لماذا دفعتهم إلى هذا ؟!

هزّ كتفيه ، مجيبًا :

ـ أنا لم أدفعهم إلى أى شىء .. كل ما فعلته هو أن ذهبت لزيارتهم ، ولكن شعورهم بالخطر هو الذى دفعهم لإرسال أحد رجالهم خلفى .

ثم تراجع فى مقعده بهدوء ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، مضيفا :

ـ وهذا ، من وجهة نظرى ، اعتراف بالذنب .

التقى حاجباها ، وهى تشير بسبّابتها ، قائلة :

ـ السؤال هو : هل يتعقبون (نديم فوزى) المحامى ، أم ...

ومالت نحوه ، مضيفة بلهجة ذات مغزى :

ـ أم (العقرب) .

اتسعت ابتسامته ، وهزَّ كتفيه ، قائلاً بنفس الهدوء :

ـ من الناحية المنطقية ، ليس هناك سبب واحد ، يدعوهم لإرسال أحد رجالهم ، ليتعقَّب محاميًا ، بسبب دعوى بيئية أقامها ضدهم .. وليس من المنطقى أيضًا ، أن يعرف أشخاص عاديون ، لا همَّ لهم سوى التجارة وإنشاء المشروعات المختلفة ، أن (نديم فوزى) ، هو فى حقيقة الأمر مكافح سرى للجريمة ، يحمل اسم (العقرب) .

ونهض من خلف مكتبه ،واتجه بدوره إلى النافذة ، مضيفًا :

ـ وكل هذا يعنى أننا نسير فى الطريق الصحيح ، وأن (رشاد السلباوى) ، ومن خلفه ، ليسوا مجرَّد رجال أعمال كبار .. إنهم فى الواقع من العمالقة .

واختلس نظرة إلى الرجل الذى يراقب المكان ، مكملاً فى حزم :

ـ عمالقة الجريمة .

لم يرق لها كثيرًا ما سمعته ، فقالت فى توتر :

ـ ما تقوله بالغ الخطورة يا (نديم) ، فهو لا يعنى أنك تواجه عتاة إجرام فحسب ، ولكن يعنى أيضًا أنه لم يعد هناك غطاء قوى ، على حقيقة شخصيتك .

صمت لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ لقد انكشف الغطاء ، منذ نزعت الإمبراطورة قناعى أمام رجالها ، منذ عام أو يزيد[*] ، وأنت تعلمين ، بحكم عملنا السابق كضابطى شرطة[**] ، أن الأخبار تنتشر بسرعة مدهشة ، فى العالم السفلى .

هتفت فى ارتياع :

ـ رباه ! هذا يعنى أننا سنواجه الخطر طوال الوقت .

قال فى صرامة :

ـ إننا نواجهه بالفعل طوال الوقت .

(*) راجع قصة (الإمبراطورة) ، فى أعداد (كوكتيل ٢٠٠٠) بدءًا من الكتاب الثامن .. (تحقيق ـ وقصص أخرى) ..

(**) راجع قصة (سيف العدالة) ، فى أعداد (كوكتيل ٢٠٠٠) ، بدءًا من الكتاب الأوَّل .. (النبوءة ـ وقصص أخرى) ..

ثم رفع رأسه إليها ، مضيفًا :

ـ ولكن الأمر يختلف كثيرًا هذه المرة .

قالها ، واتجه إلى ما خلف مكتبه ، وضغط الزر الخفى فى الجدار ، لتتكشف الفجوة التى تحوى زيه الأسود ، وهو يكمل :

ـ فالعقرب لايعمل هذه المرة منفردًا .. إنه يعمل من خلال مهمة .

وتراقصت ابتسامة جذلة على شفتيه ، وهو يضيف فى حزم :

ـ مهمة رسمية .

وأدركت (غادة) أن (العقرب) قد عاد إلى عالم مكافحة الجريمة ..

وبكل قوته .

* * *

٣ ـ الشحنة ..

فغر (رشاد) فاه فى ذهول ، وهو يحدّق فى وجه محاميه ، ويستمع إليه فى دهشة ما بعدها دهشة ، والأخير يروى له كل ما يعرفه عن (نديم فوزى) و(العقرب) ..

ولدقيقة كاملة ، بعد أن انتهى (إدوارد) من روايته ، ظلّ (رشاد) صامتًا ، ذاهلاً ، مصدومًا ، قبل أن ينتزع نفسه من كل هذا فى عنف ، هاتفًا :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن يكون لدينا شىء كهذا فى (مصر) .. مستحيل !

قال المحامى فى صرامة :

ـ لكل شىء بداية .

لوّح (رشاد) بذراعه ، هاتفًا :

ـ إلا هنا .. (مصر) ليست (المكسيك) أو (نيويورك) ، ليظهر فيها (زورو) أو (باتمان) .. إننا شعب مختلف تمامًا حتى إنك لو حولت ما أخبرتنى به إلى فيلم سينمائى ، لما صدّقه مشاهد واحد ، ولاتهموك بالمبالغة والتخريف .

قال المحامى بصرامة أكثر :

ـ ربما ، ولكن ما أخبرتك به واقعى وصحيح تمامًا ، وأخشى أن تتطوَّر الأمور ، لتواجهه بنفسك .

تراجع (رشاد) بحركة حادة ، هاتفًا فى هلع :

ـ أواجهه ؟!

قال المحامى فى شراسة :

ـ نعم .. لو ظللت تولول كالأرامل ، بدلاً من أن تستوعب الأمر ، وتتصدَّى له بالصرامة اللازمة .

هتف (رشاد) ، وهو يواصل تراجعه المذعور :

ـ أتصدَّى له ؟! أنت تعلم أننى لا أستطيع هذا .. تلك الأمور من اختصاصك أنت .

اعتدل (إدوارد) ، مجيبًا :

ـ بالتأكيد .. كلانا يعلم هذا ، وكذلك الأصدقاء فى (لوس أنجلوس) .. لهذا استخدموك كواجهة أنيقة فحسب ، فى حين وضعوا كل السلطات الأخرى فى قبضتى أنا .

لوَّح (رشاد) بذراعه ، قائلاً فى عصبية :

ـ فليكن أيها المتباهى .. تول أنت الأمر كله ، وتذكَّر أننى لا أريد أن أعرف ما ستفعله .

قال (إدوارد) فى سخرية متوترة :

ـ رقة المشاعر وحساسية الدم مرة أخرى ! لست أدرى كيف يمكن لمثلك أن يعمل معنا .

هتف (رشاد) فى حدة :

ـ تذكَّر أنهم هم سعوا إلىَّ ، ولم أسع أنا إليهم .

قال المحامى فى سخرية :

ربما لأنك الطراز الذى يحتاجون إليه بالضبط .. الطراز الذى يعمل بناء على الأوامر ، ويجيد الحديث واللباقة فحسب ، ولكنه لا يجرؤ على خداعهم ، أو الاستيلاء على أموالهم ، بأية صورة كانت .

صاح به (رشاد) :

ـ أنت حقير .

هزَّ (إدوارد) كتفيه ، ودس كفيه فى جيبى سرواله ، قائلاً :

ـ هذا أحد مقومات وظيفتى .

ثم ترك حاجبيه يلتقيان ، وهو يتحرك فى المكان ، متابعًا :

ـ الشىء الوحيد المؤكد الآن ، هو أن (العقرب) يدس أنفه فى شئوننا ، وهذا يعنى أنه ، ولسبب ما ، يشكّ فى أمرنا ، ويستعد لجولة قريبة معنا ، وهذا نذير بسيل من المتاعب ، لايمكننا معرفة أو تحديد مداه ، ولا يمكننا أيضًا أن نجلس فى انتظار قدومها .. لابد أن نكون أوّل من يتحرّك ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع رنين هاتفه المحمول بغتة ، فاختطفه من جيبه فى سرعة ، وضغط زر الاتصال ، قائلاً فى لهفة :

ـ من المتحدّث ؟!

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يستمع إلى محدّثه ، قبل أن يسأله فى توتر :

ـ ما الموقف الآن يا (جابر) ؟!

واحتقن وجهه بشدة ، وهو يصرخ :

ـ ماذا ؟!

انتفض قلب (رشاد) فى صدره هلعًا ، وامتقع وجهه بشدة ، وهو يهتف :

ـ ماذا حدث ؟! ماذا حدث ؟!

ولكن المحامى تجاهله تمامًا ، وهو يصرخ عبر الهاتف :

ـ أغبياء .. حمقى .. ماكان ينبغى أن يحدث هذا أبدًا .. قل لهؤلاء الأوغاد أن يبذلوا قصارى جهدهم للعثور عليه .. هل تفهم ؟!

أنهى المحادثة فى عصبية زائدة ، فأمسك (رشاد) كتفيه فى ذعر ، هاتفًا :

ـ أخبرنى ماذا حدث بالله عليك ؟!

التفت إليه المحامى بوجه محتقن ، هاتفًا :

ـ لقد فقدوا أثره ..

تراجع (رشاد) كالمصعوق ، وهو يهتف بصوت مختنق

ـ فقدوا أثره ؟!

لوّح المحامى بذراعه ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ذلك الشيطان خدعهم ، وتسلَّل من تحت أنفهم ، واختفى .. اختفى تمامًا .

انتفض جسد (رشاد) كله هذه المرة ، وهو يهتف :

ـ اختفى ؟! يا إلهى !! وماذا سنفعل الآن ؟! ماذا سنفعل ؟!

أشار إليه المحامى فى صرامة عصبية ، قائلاً :

ـ اصمت يا رجل .. كفَّ عن الارتجاف هكذا كالنساء ، ودعنى أحاول التفكير فى هدوء .

أمسك به (رشاد) فى رعب ، وهو يردِّد :

ـ ولكنه سيهاجمنا .. أليس كذلك ؟! سينقضّ علينا بغتة ، كما فعل مع من قبلنا ، و ...

قاطعه المحامى بصرخة هادرة :

ـ قلت : اصمت .

ارتجف (رشاد) فى رعب ، كطير ذبيح ، وهو يلقى نفسه على مقعده فى انهيار ، فى حين راح المحامى يتحرَّك فى المكان فى عصبية ، قائلاً :

ـ لقد أدرك إذن أننا نراقبه .. بل ربما كان هو من دفعنا إلى هذا ، ليتبيَّن حقيقة أمرنا .. يا للسخافة ! وأنا وقعت فى الفخ كالغر الساذج ، ولم أتريَّث لأمنح نفسى مهلة للتفكير .. يا للغباء ! يا للغباء ! كان ينبغى أن أتمهَّل ، قبل أن أقدم على هذه الحماقة .

ضاعف حديثه العصبى من ارتياع (رشاد) ورعبه ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، وإنما اكتفى بمراقبة المحامى بعينين زائغتين ، وهذا الأخير يواصل حديثه مع نفسه ، قائلاً بكل العصبية :

ـ ولكن لماذا هرب منهم ؟! ما الذى يسعى إليه بالضبط ؟! إلى أين أذهب أنا ، لو كنت فى مكانه ؟!

وتوقَّف بغتةً ، وهو يعتصر ذهنه ، بكل ما يمتلك من قوة وطاقة ، مكملاً :

ـ أين يمكن أن يكون الآن ؟ أين ؟!

نعم أيها المحامى الثعلب ..

أين ؟!

* * *

أوقفت (غادة) سيارة (نديم) فى حذر ، إلى جوار أكبر مخازن شركات (رشاد السلباوى) ، وهى تقول فى توتر :

ـ اقتحامك لمخزن (السلباوى) بهذه السرعة ، مغامرة غير مأمونة العواقب .

ابتسم (نديم) ، وقال ، وهو يرتدى قفازيه السوداوين :

ـ على العكس يا عزيزتى .. القاعدة التى أثبتت نجاحها دومًا ، وهى ضرورة طرق الحديد وهو ساخن ..

ثم التقط قناعه من جيبه ، ووضعه على وجهه ، مكملاً :

ـ هؤلاء الأوغاد تحركوا فور مغادرتى شركتهم ، ولو تأخرنا نحن فى خطوتنا ، سنمنحهم الوقت لاتخاذ كل التدابير اللازمة ، لمنعنا من بلوغ أهدافنا .

كانت تشعر بقلق مبهم ، فى هذه الليلة بالذات ، مما جعلها تسأله :

ـ وما الذى تتوقَّع العثور عليه فى المخزن ؟! الشحنة التى تسلَّمها (السلباوى) اليوم ، تم فحصها جيدًا جدًا ، بوساطة

ضباط الأمن والجمارك ، وتقريرهم يؤكِّد أنها سليمة تمامًا ، ولاتحوى أية أشياء ممنوعة .

عقد قناعه جيدًا ، وهو يقول :

ـ ربما لايمكننى الاقتناع بأن (رشاد السلباوى) يمكن أن يستورد شحنة من الكتب الثقافية ..

غمغمت فى قلق :

ـ ربما هى محاولة لتغطية شحنة أخرى قادمة .

هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ ربما .

ثم غادر السيارة ، مستطردًا فى حزم :

ـ وهذا ما على (العقرب) أن يكشفه .

ارتجفت شفتاها ، وهى تقول :

ـ انتبه جيدًا الليلة .

ابتسم ، وهو يشير إليها ، مجيبًا :

ـ وأنت .. لا تغادرى السيارة أبدًا .

غمغمت :

ـ سأحاول .

أشار إليها بيده مرة أخرى ، وهو يتجه نحو المخزن فى خفة ، ثم سرعان ما تلاشى وسط الظلام ..

وفى توتر لامثيل له ، ارتجف قلبها بين ضلوعها ، وعقلها يتساءل : لماذا تشعر بكل هذا القلق الليلة ؟!

لماذا ؟!

أما هو ، فقد تسلَّق أحد الأعمدة الخشبية الملاصقة لجدار المخزن ، فى سرعة ورشاقة ، قبل أن يثب على سطحه فى خفة ، ثم يتجمَّد فى مكانه ، وعيناه تدوران فيما حوله فى حذر ..

لاحراسة على السطح ..

نقطة فى صالح (رشاد) ، وتوحى بأن الشحنة لاتحوى ما يمكن أن يخشى ضياعه أو كشفه ..

ولكن كتب ثقافية ؟!

لا ..

ليس هذا الطراز من البشر ..

أما هو ، فقد تسلَّق أحد الأعمدة الخشبية الملاصقة لجدار المخزن ، فى سرعة ورشاقة ، قبل أن يثب على سطحه فى خفة ، ثم يتجمدً فى مكانه ..

هناك شىء ما يختفى حتمًا ، وراء تلك الشحنة الثقافية ..

ودون أدنى شك ..

جمد في مكانه لدقيقتين كاملتين ، ثم عاد يتحرك بمنتهى الخفة بحثًا عن مدخل إلى المخزن ..

وكان الأمر أسهل مما تصورً ..

لقد عثر على نافذة علوية ، غير مغلقة ، ولا يحيط بها أى حرًاس ..

وبمرونته المعهودة ، ربط طرف الحبل الذى يحمله ، فى إطار النافذة المعدنى ، ثم تدلّى بوساطته إلى داخل المخزن ..

كان المكان غارقًا فى ظلام دامس ، فيما عدا الضوء الخافت ، المتسلل من النوافذ ، والذى يحمل لمحة من ضياء القمر ..

ولكنه لم يشعل مصباحه اليدوى ..

فقط توقًف فى مكانه صامتًا ساكنًا ، حتى اعتادت عيناه ذلك الضوء الخافت ، ثم عاد يتحرك فى خفة ..

كان المخزن ضخمًا ، يحتلّ ما يزيد على ألفى متر ، توزّعت فيها صناديق البضائع على نحو متناثر غير منظّم ، لا يتفق مع شركة ضخمة شهيرة ، مثل شركة (السلباوى) ..

ولكن (العقرب) كان يبحث عن شحنة بعينها ..

تلك الشحنة التى وصلت ظهر اليوم ، والتى لم يتمّ فرزها والتعامل معها بعد ..

ولقد عثر عليها ، فى الركن الشمالى من المخزن ..

ما يقرب من ثلاثمائة صندوق من الكرتون المقوَى ، محاطة بإحكام ، بأشرطة معدنية رفيعة ، تضمن قوتها وتماسكها ، وهى متراصة بعضها فوق البعض ، فى عشرة صفوف متجاورة ..

وفى رشاقة وسرعة ، تسلق العقرب ذلك الهرم من الصناديق ، ثم أخرج مطواته السويسرية ، وراح يعالج أحد الصناديق ، حتى فتحه ، والتقط من داخله أحد الكتب ، وراح يتأمّله فى اهتمام ، على الضوء الخافت ..

إنها كتب ثقافية بالفعل ..

موسوعات بالغة الأناقة ، ذات غلاف أحمر زاه من الجلد الطبيعى ، المزدان بنقوش ذهبية ، منحته فخامة تفوق المعتاد ..

تُرى أهذا كل ما تحويه الشحنة ؟!

فحص الكتاب عدة مرات ، فى اهتمام بالغ ، ثم لم يلبث أن دسَّه فى قميصه ، مغمغمًا :

ـ الأمر يحتاج إلى فحص أكثر دقة .

لم يكد ينطقها ، حتى اشتعلت أضواء المخزن بغتة ..

وعلى الرغم من التوتر الشديد ، الذى سرى فى كل ذرة من كيانه ، إلا أنه ثبت فى مكانه تمامًا ، وقد بهر الضوء المباغت عينيه ، وأجبره على إغلاقهما ، و ....

« كنت واثقًا من أننى سأجدك هنا .. »

اخترقت العبارة الساخرة الشامتة أذنيه ، ففتح عينيه فى حركة سريعة ، وحدَّق فى ذلك المشهد أمامه ..

فهناك ، وعند كومة أخرى مجاورة من الصناديق ، كان يقف (إدوارد) ، محامى (رشاد السلباوى) ، وحوله أربعة من رجال الأمن الأقوياء ، وهو يتابع فى ثقة :

ـ يبدو أننى نجحت فى قراءة أفكارك هذه المرة ، أيها (العقرب) .

كان الموقف عسيرًا وشديد الحساسية بالفعل ، إلا أن (العقرب) تماسك فى سرعة ، وهو يقول :

ـ عظيم .. والآن وبعد أن قرأت أفكارى ، وعثرت علىَّ هنا ، ماذا تنوى أن تفعل ؟! هل ستقتلنى بحجة أننى دخلت مخزن رئيسك خلسة ؟!

ارتفع حاجبا المحامى ، فى دهشة مصطنعة ، وهو يقول :

ـ أقتلك ؟! يا لها من فكرة !

ثم عادت أساريره تنبسط ، فى ثقة شامتة ، وهو يضيف :

ـ خطأ أيها (العقرب) .. خطأ .. أنا رجل قانون ، وكل ما أفعله قانونى مائة فى المائة .. لقد شككت فى أنك تنوى سرقة مخازننا ، واتخذت الإجراء القانونى تمامًا .

« هذا صحيح » ..

جاءت العبارة الأخيرة ، من خلف مجموعة الصناديق المجاورة ، وعلى إثرها اندفع فريق من رجال الشرطة ، من كل صوب ، وصوَّبوا مدافعهم الآلية إلى (العقرب) ، ثم لحقهم صاحب العبارة ، وعيناه تتألَّقان فى ظفر ، وهو يتابع :

ـ ولقد كانت فرصة لايمكن أن أضيعها ، لألتقى بك وجهًا لوجه على الأقل .

وانعقد حاجبا (العقرب) فى شدة ..

فذلك القادم ، كان آخر شخص يتمنى رؤيته ، في مثل هذه الظروف ..

لقد كان عدوه الأول ، في صفوف الشرطة ، والرجل الذي اعتبر أن هدفه الأساسي في الحياة هو الإيقاع بـ (العقرب) ..

كان (مجدى) ..

العقيد (مجدى) ..

* * *

تابع الأحداث ، في الكتاب القادم
من سلسلة كوكتيل ٢٠٠٠

(دراسة)

حدث فى (روزويل)

أخيرًا انتهت الحرب العالمية الثانية ، ووضعت أوزارها نهائيًا ، مخلفة وراءها دمارًا لم يشهده العالم فى تاريخه كله ، وبخاصة بعدما تم محو مدينتين يابانيتين كاملتين من الوجود ، (هيروشيما) و(ناجازاكى) ، بقنبلتين ذريتين ، أذهلتا العالم كله ، وأصابتاه برعب لامحدود ، وجعلتاه يتطلَّع إلى المستقبل بنظرة خائفة متشائمة ..

وبدأ العالِم مرحلة جديدة ..

(أوروبا) و(آسيا) انشغلتا فى مرحلة إعادة البناء ، بعد اقتسام وتوزيع الأسرى والغنائم ، و(إفريقيا) راحت تلتقط أنفاسها أخيرًا ، بعد أن تورَّطت طويلاً فى حرب طاحنة ، لم يكن لها ناقة فيها ولا جمل ..

أما (أمريكا) ، فقد انتفخت أوداجها ، وانتفش ريشها ، وراحت تستعرض قوتها الجديدة ، فى مهرجانات واحتفالات مبهرة عديدة ..

ودارت الأيام دورتها ..

وهدأت الأمور كلها ..

ولكن (أمريكا) بدأت تتعامل باعتبارها القوة الأعظم فى العالم ، بما تملكه من أسلحة ذرية ونووية ، لا يمتلكها غيرها ، وبدأت تتصوَّر أنه ما من قوة فى الوجود يمكنها أن تفتَّ فى عضدها ..

وبعد عامين تقريبًا ، وفى منتصف نهار الثلاثاء ٢٤ يونيو ١٩٤٧م ، كان رجل الأعمال الأمريكى الشاب (كينيث أرنولد) يقود طائرته ذات المحركين ، فى سماء صافية ، خالية من الغيوم تمامًا ، وطقس مثالى للطيران ، فى منطقة جبل راينر

(Rainier) وسط ولاية (واشنطن) ، محلقًا حول القمة المتجمِّدة لبركان (مايتى) الخامد ، وهو هادئ النفس ، صافى الذهن ، لا يشغله شىء فى الوجود سوى العثور على طائرة نقل أمريكية عسكرية مفقودة فى المنطقة ، على أمل الفوز بجائزة قدرها خمسة آلاف دولار ، أعلنت عنها القوات الجوية الأمريكية ، لمن يعثر على الطائرة أو حطامها ، بعد أن اختفت تمامًا هناك ، وعلى نحو غامض للغاية ..

ولقد انهمك (كينيث) تمامًا فى عملية البحث ، بسبب جودة الطقس ، و ....

وفجأة ، انعكس ضوء الشمس على وجهه ، من مصدر ما ..

وبسرعة ، استعاد الأمريكى انتباهه على القيادة ، ظانًا أن الشمس قد انعكست عن جسم طائرة اخرى ، تتخذ مسارًا يتعارض مع مسار طائرته ..

ولكن كل شىء كان هادئًا تمامًا ..

وعلى مدى بصره ، لم تكن هناك أية طائرة تحلّق ، فى المدى الذى يمكن أن تنعكس عنده أشعة الشمس ..

ولكن هناك ، فى أقصى الأفق ، لمح (كينيث أرنولد) شيئًا يتحرك ..

لم يبد له أشبه بأية طائرات معروفة بل بدا كأقراص منفصلة تطير بلا رابط ، فى اتجاهه تقريبًا ..

كان ما رآه يبعد ـ وفقًا لتقديره ـ ما يقرب من ألف ميل ، حتى إنه لولا السماء الصافية ، لما أمكنه حتى ملاحظتـه ، لذا فقد عزا ذلك الانعكاس إلى شىء آخر حتمًا ، وقرَّر أن يتجاهل كل هذا ، وأن يعود إلى عملية البحث عن حطام الطائرة العسكرية ..

ولكن تلك الأجسام كانت تتحرَّك بسرعة مذهلة بحق ..

فلم تمض لحظات ، حتى كانت على مسافة ثلاثمائة ميل منه فحسب ..

ولقد بدا له ـ عندئذ ـ أنها تتجه نحوه مباشرة ..

ولقد كان على حق فى كل ما تصوَّره ..

تلك الأجسام كانت تتجه نحوه مباشـرة .. وبأقصى سرعة رآها فى حياته كلها ..

ومن مسافة قريبة بما يكفى رأى (كينيث) تلك الأجسام مباشرة ، ووصف ماراه فيما بعد ، قائلاً :

ـ لم تكن هنـاك أية بروزات واضحـة .. لا مقدِّمة ، أو ذيل ، أو أجنحة ، فقط أسطوانات دائرية تمامًا ، ولامعة إلى حد مدهش ، حتى إنها تعكس أشعة الشمس ، من مسافات بعيدة ، وكانت عبارة عن تسعة أجسام ، تطير فى صف واحد ، كطابور عسكرى ، وأسلوبها فى الطيران كان عجيبًا للغاية إذ بدت أشبه بأطباق تطير ، عندما نلقيها على سطح بحيرة هادئة ..

ومن عبارته الأخيرة بالتحديد ، التقط أحد الصحفيين المحليين مصطلح (الأطباق الطائرة) ، الذى عُرِفَتْ بـه تلك الأجسام مجهولة الهوية ، على النطاق الشعبى ، حتـى يومنا هذا ..

وعندما تم نشر واقعـة (كينيث) ، على نطـاق واسع ، فى الأسبوع التـالى مباشرة ، كـانت ردود الأفعال واسعة ومتباينة للغاية ، فقد استقبلها المجتمع الأمريكى بما يشبه الصدمة ..

ففجأة ، وبعد أن خرج الأمريكيـون من الحرب ظافرين منتصرين ، يظنون أنهم القوة العظمى ، تأتى واقعة كهـذه ، لتشير إلى أن البشر ليسـوا وحدهم فى الكون ، بل هنـاك

مخلوقات عاقلة أخرى ، تمتلك تكنولوجيا أكثر تفوقًا ، جاءت تستعرض قوتها فى سمائهم ..

وعلى قدر ما صُعِقَ البعض بالخبر ، رفضه البعض الآخر فى شدة ، بل واستنكره تمامًا ، من منطلق الخوف ، أو عدم التصديق ، أو حتى الغرور البشرى ، الذى يرفض وجود قوة أخرى متفوّقة سواه ..

أما الجهات الرسمية العسكرية ، فقد لاذت بالصمت تمامًا وأنه كانت لديها شهادة أخرى ، لم تحظ بالترويج الإعلامى المماثل ، ولكنها توافقت مع شهادة (كينيث أرنولد) ، على نحو يثير القلق والحيرة ..

فلقد أبلغ أحد الباحثين عن الذهب ، فى (أوريجون) ، أنه قد شاهد تسعة أجسام مستديرة لامعة ، تقطع السماء بسرعة مذهلة ، وأن البوصلة التى يحملها قد أصابها الجنون ، فى لحظة العبور هذه ..

الرجل أدلى بشهادته فى الثالثة وتسع دقائق ، فى حين قرَّر (كينيث أرنولد) فى تقريره أن تلك الأجسام التسعة عبرت إلى جواره ، فى الثانية وتسع وخمسين دقيقة بالتحديد ..

إذن فالباحث عن الذهب لم يكن يعرف شيئًا عما رآه رجل الأعمال الشاب ، عندما أبلغ عما رآه هو ..

ثم إن التقرير الرسمى ، الذى قدَّمه خبراء الطيران ، والذى لم يُنشر إلا فى أواخر الثمانينات ، كان يتساءل فى نهايته : لماذا يدَّعى رجل أعمال محترم وملتزم ، مثل (كينيث أرنولد) ، بأنه قد رأى تلك الأجسام الطائرة ، ما لم يكن قد رآها بالفعل ؟!

ولكن ، وعلى الرغم من الموقفين ، الصحفى والرسمى ، فقد أصابت الولايات المتحدة الأمريكية بغتةً حمى غريبة ..

حمى الأطباق الطائرة ..

أكثر من ثمانمائة وخمسين بلاغًا عن رؤية الأطباق الطائرة ، تلقتها الدوائر الأمريكية ، على طول الولايات المتحدة وعرضها ..

الكل رأى ، وشاهد ، والتقط الصور أيضًا ..

وفى أوَّل يوليو ١٩٤٧م ، جاءت شهادة شخص محترم ومرموق للغاية ، ألا وهو (ماكس هود) ، رئيس الغرفة التجارية فى (بوكريك) ، الذى أعلن مشاهدته لطبق طائر ، يسير فى خط متعرِّج عبر السماء ..

وفى الليلة نفسها ، وفى تمام الحادية عشرة ، اتصل رئيس الشرطة العسكرية (أدوين آزلى) بمسئول المخابرات فى المدينة (جيس مارسيل) ، وهو يهتف فى انفعال شديد :

ـ احضر بأقصى سرعة .. لن يمكنك أن تصدِّق ما نراه هنا .

ولقد انطلق إليه (جيس) على الفور ، وبينما كان فى طريقه ، شاهد فى السماء تشكيلاً مضيئًا ، على شكل حرف (V) ، ينطلق نحو الجنوب ، فغمغم فى توتر :

ـ ما هذا بالضبط ؟! طائراتنا لا يمكنها الطيران بهذه السرعة .

وأيَّدت هذه القصة فكرة وجود الأطباق الطائرة ، وإن عاد الماجور (جيس) نفسه يكذِّبها ، على نحو يوحى بأنه قد تلقَّى أوامر رسمية بهذا ..

وفى صباح السابع من يوليو ١٩٤٧م وفى مدينة (روزويل) الصغيرة ، فى ولاية (نيو مكسيكو) ، وعلى مسافة مائتى ميل من قاعدة طيران عسكرية ، التقط (ويليام رودز) ، البائع البسيط ، أوَّل صور فى التاريخ للأطباق الطائرة ، وهو فى طريقه إلى عمله ..

ولقد قام (ويليام) بتحميض الفيلم وطبعه ، فى اليوم نفسه ، ليسلمه إلى الصحيفة المحلية ، وهو يمنِّى نفسه بأن يكون هذا الخبر هو قنبلة الصحيفة فى اليوم التالى ، وأهم أخبارها ، و ....

ولكن أحدًا لم يتصوَّر قط أن خبر (ويليام رودز) لن يساوى شيئًا فى صحيفة اليوم التالى ؛ لأن (روزويل) كلها كانت تنتظر مفاجأة ..

مفاجأة لا تخطر على بال أحد من سكانها .. قط .

* * *

فى تمام الرابعة عصرًا ، وفى محطة الراديو المحلية بمدينة (البوكريك) بولاية (نيومكسيكو) الأمريكية ، يوم ٧ يوليو ١٩٤٧م ، كانت موظفة المحطة (ليديا سلبى) تجلس هادئة كعادتها ، تنجز بعض الأعمال الإدارية المتأخرة ، عندما ارتفع رنين الهاتف فجأة ، على نحو أزعجها ، وانتزعها من تركيزها فى عنف ..

ولأن ميزانية المحطة محدودة ، كانت (ليديا) تقوم ،

إلى جوار أعمالها الإدارية ، بوظيفة عاملة الهاتف ، ومسئولة إرسال التيلكس أيضًا ، لذا فقد التقطت سمّاعة الهاتف ، وسألت عن المتحدّث ، الذى لم يكن سوى (جونى ماك بويل) ، الذى يمتلك مع أخته محطة إذاعية صغيرة فى (روزويل) ..

ولما لم يكن (جونى) يمتلك جهاز تلكس ، فقد اعتاد الاتصال بمحطة (ليديا) ، كلما كانت لديه أخبار مهمة ، لتقوم هى ببثها إلى المحطات الكبرى ، عبر جهاز التلكس ، لذا فقد استقبلت هى الأمر فى بساطة ، ولكنها فوجئت به يصرخ ، فى انفعال شديد :

ـ (ليديا) .. اسمعينى جيدًا .. لقد سقط طبق طائر ، بالقرب من (روزويل) .. لقد كنت هناك ، وشاهدته بنفسى .. إنه أشبه بطبق ضخم مقلوب ، تحطّم جزء فى طرفه .. بعض المزارعين هناك أيضًا ، وأحدهم حاول أن يجذبه بالجرار إلى جرنه ، ولكن الجيش وصل إلى هناك .. يبدو أنهم يسعون للحصول عليه .. المنطقة كلها مغلقة ..

ثم توقّف لحظة ؛ ليلتقط أنفاسه ، قبل أن يعاود الصراخ لاهثًا :

ـ (ليديا) .. هل تبثين ما أخبرك به ؟!

كانت ـ بحكم خبرتها ـ تضرب أزرار التلكس تلقائيًا ، بكل ما تسمعه منه ، كما يحدث فى كل مرة ، فهتفت ، وقد انتقل إليها الانفعال :

ـ بالتأكيد .. أكمل ..

تابع هو ، بكل الانفعال واللهفة :

ـ إنهم يتحدثون عن رجال صغار .. سجلى هذا .. رجال صغار داخل ذلك الطبق .. الجيش ينتشل جثثهم من داخله .. هناك جثتان على الأقل .

سألته (ليديا) بانفعال مماثل ، وهى تواصل البث :

ـ هل رأيتهما بنفسك ؟!

كانت تتوقّع منه ردًا فوريًا سريعًا ، مفعمًا بالانفعال ، إلا أن ما سمعته ، على الجانب الآخر للخط الهاتفى ، لم يكن سوى ضوضاء غير مميّزة ، وهتاف يأتى من بعيد ، وأصوات ارتطام وشجار ..

وفى اللحظة نفسها ، توقّف جهاز التلكس عن البث ، ثم استقبل رسالة محدودة ، راحت تتكرّر فى سرعة على نحو محموم :

ـ أوقفى الاتصال فورًا .. لا تواصلى البث .

وبينما هى تحدق فى الرسالة بدهشة قلقة ، فوجئت بصوت (جونى) ، يأتيها عبر الهاتف ، بانفعال أكثر شدة ، وهو يهتف :

ـ لا تبثى ما أبلغتك به يا (ليديا) .. امحى كل شىء فورًا .. لا تبثى ما أخبرتك به ، وحاولى نسيان كل ما سمعته .. هل تفهمين ؟!

قالها ، وأنهى الاتصال بحدة لم تعهدها منه ، وعلى نحو جعلها تتساءل ، بكل ما اعتمل فى نفسها من اضطراب :

ـ تُرى ما الذى حدث حقًا فى (روزويل) ؟!

ولم يكن هذا سؤالها وحدها ، بل هو السؤال الذى ظلّ يتردّد فى كل الأوساط ، حتى يومنا هذا ..

السؤال الذى أجابته جريدة (روزويل) المحلية ، عندما نشرت فى رأس صفحتها الأولى ، فى صباح الثامن من يوليو تقول : طبق طائر سقط فى (روزويل) ..

ولولا ما نشرته الصحيفة ، التى تتمتّع كغيرها بحرية

الصحافة فى (أمريكا) ، فربما لم يكن هناك من سمع قط عن واقعة (روزويل) هذه ..

ففى السادسة من صباح ٨ يوليو هذا ، حمل ماجور (مارسيل) وكابتن (كافيت) إلى رئيسهما ، فى القاعدة الجوية ، قطعة معدنية ، طولها قدم واحد ، وعرضها ستة بوصات ، وأخبراه أنها جزء من حطام الطبق ، الذى سقط بالقرب من (روزويل) (نيومكسيكو) ..

ولقد كانت تلك القطعة المعدنية عجيبة للغاية ، بالنسبة لكل من رآها ..

فعلى الرغم من خفة وزنها الشديدة ، التى لا تتناسب قط مع حجمها ، كانت القطعة صلبة إلى حد مدهش ، حتى إن الماجور (مارسيل) ، المعروف بقوته ، قد عجز تمامًا عن أن يثنيها ، على الرغم من كل محاولاته ..

ولقد تحدّث الرجال الثلاثة بعض الوقت عما حدث ، ثم لم يلبث الرئيس أن حسم الحديث بقوله :

ـ هذا الشىء يدهشنى بحق ، وخاصة مع ملمسه ، الذى يجمع بين المعدن والبلاستيك ، والذى لم أعهد مثله قط

من قبل ، إلا أن الأوامر ، التى تلقيتها هذا الصباح ، صريحة وصارمة للغاية .

ثم شدّ قامته ، مضيفًا :

ـ سنغلق الحديث فى هذا الأمر ، وننساه تمامًا ، وكأنه لم يكن أبدًا .. مفهوم .

ولم يكن أمام الرجلين سوى الموافقة ، وتسليم القطعة المعدنية مجهولة الهوية إلى رئيسهما ، وإغلاق فميهما طويلاً ..

ولكن ليس إلى الأبد ..

ففى عام ١٩٩٤م ، روى الكابتن (كافيت) القصة بتفاصيلها لمحرّر جريدة (واشنطن بوست) ، التى أولت الأمر ـ آنذاك ـ اهتمامًا كبيرًا ..

وفى (روزويل) نفسها ، وبعد ما نشرته صحيفتها المحلية ، توافد الآلاف ، من مختلف الولايات ، لإلقاء نظرة على موقع السقوط ، وسماع روايات السكان المحليين ، على الرغم من أن الجيش قد نقل كل شىء بعيدًا ..

وفى الخامس عشر من يوليو ، أى بعد سبعة أيام كاملة ، أصدرت قيادة الجيش الأمريكى بيانًا ، قالت فيه : إن ما سقط فى (روزويل) لم يكن سوى منطاد طقسى فحسب ..

وكان هذا مسار سخرية الكل ..

فلو أن الأمر كله يتعلّق بمنطاد طقس واختبارات ، لماذا انتظرت قيادة الجيش أسبوعًا كاملاً لتصرّح بهذا ؟!

بل ولماذا أغلقت المنطقة كلها حينذاك ؟!

ولم يصدّق أحد ما أعلنه الجيش ، حتى أولئك الذين لا يؤمنون بوجود حياة عاقلة أخرى فى الكون ..

واستمرّ الناس يتحدثون عن (روزويل) ..

ويتساءلون ..

ويدرسون ..

مئات الدراسات خرجت ، لتفسير ما حدث فى (روزويل) ، وما صحبه من تحركات عسكرية وسرية ..

ومع مرور الوقت ، بدأت بعض الحقائق تتكشّف رويدًا رويدًا ..

وفى عام ١٩٨٠م ، أصدر (تشارلز بيرلتز) كتابه الشهير (واقعة روزويل) ، الذى جمع فيه كل الحقائق والاستنتاجات ، حول ما حدث فى تلك البلدة الصغيرة ، فى ولاية (نيومكسيكو) ..

ولأوَّل مرة ، بعد سنوات طوال ، أشار (بيرلتز) إلى الجثث ، التى تم العثور عليها ، داخل ذلك الطبق الطائر ، عام ١٩٤٧م .

ولأوَّل مرة أيضًا ، اتهم (بيرلتز) الحكومة الأمريكية بأنها تُخفى جثتى اثنين من ملاحى الطبق الفضائيين ، وتخفى معهما حقيقة وجود مخلوقات فى كواكب أخرى ، عن الشعب الأمريكى والعالم أجمع ..

ولم ترد الحكومة على اتهامات (بيرلتز) ، على الرغم مما لقيته من أصداء واسعة ، على كل المستويات ..

وربما كان هذا ما زاد الأمر غموضًا ، وضاعف من عدد مصدقيه ، على مر السنين ..

التجاهل التام للحكومة الأمريكية ، فى كل ما يتعلَّق بحادثة (روزويل) ..

فعلى الرغم من أن الحكومة قد أنشأت فى الستينات لجنة

(الكتاب الأزرق) ، المسئولة عن التحقيق فى كل بلاغات ومشاهدات الأطباق الطائرة ، والتى انتهت باحتمال وجود ظاهرة تفوق إدراك البشر ، إلا أن نفس الحكومة ظلَّت تتجاهل تمامًا ، دون أى تبرير ، أية إشارة إلى واقعة (روزويل) ..

وحطمً كتاب (بيرلتز) كل الأرقام القياسية فى التوزيع ، وبيعت منه ملايين النسخ ، وردَّد الملايين ما قاله فيه ، عن وجود منطقة تحمل رقم ٥١ (Area 51) ، بين المناطق العسكرية السرية الأمريكية ، يحتفظ فيها العلماء بجثتى المخلوقين الفضائيين ، اللذين تم تشريحهما منذ ما يزيد على الثلاثين عامًا .

ولكن الحكومة الأمريكية ظلَّت تتجاهل .. وتتجاهل ..

إلى أن ظهر إلى الوجود فجأة دليل قوى ، على صحة ما حدث فى (روزويل) ..

دليل لا يقبل الشك ..

أبدًا ..

* * *

فى أكتوبر عام ١٩٩٤م ، نشرت مجلة (أومنى) (OMNI) العلمية نداءً إلى كل قرائها ، تناشدهم إرسال مطلب إلى

الحكومة الأمريكية ، لكشف كل ما تخفيه من أسرار ، حول واقعة (روزويل) الشهيرة ..

وانهالت بالفعل ملايين المطالب على الحكومة الأمريكية ، التى أصرَّت مواصلة رد فعلها الاستفزازى الشهير ، ألا وهو التجاهل التام للموقف ..

ولكن فجأة ظهر الدليل ..

فيلم سينمائى ، من طراز المليمترات الثمانية قديم الطراز ، كان يخفيه طيار سابق ، منذ ما يقرب من خمسين عامًا ، ثم قرَّر فجأة أن يعلنه ، قبل أن يباغته الموت ..

وكان الفيلم قنبلة بحق ..

إنه فيلم كامل ، يحوى تفاصيل مذهلة ، لعملية تشريح كاملة ودقيقة ، لكائن فضائى غير بشرى ، تمت عقب سقوط ذلك الطبق الطائر فى (روزويل) ..

وكانت صدمة عنيفة بحق ..

وكرد فعل طبيعى ، لعالم بلغت قدراته الإعلامية والاتصالية حدًّا مدهشًا ، أذاعت معظم محطات التليفزيون الفيلم كاملاً ، وأنتجت عشرات البرامج حول صحته ومصداقيته ، وعما إذا كان ما به حقيقة أم مجرَّد وهم وخداع ..

وجاءت آراء الخبراء مدهشة ..

خبير فى التصوير السينمائى أكَّد أن الفيلم تعود مادته الخام إلى فترة الأربعينات بالفعل ، وأن النسخة التى لديه تم تصويرها ما بين عامى ١٩٤٦م ، و ١٩٤٨م ، وقدَّم بهذا شهادة موثَّقة ، بعد أن فحص الفيلم ميكروسكوبيًّا أيضًا ..

خبراء الخدع السينمائية فى (هوليود) أعلنوا أنه من المستحيل أن يكون هذا الفيلم مجرَّد خدعة سينمائية ، لأنه ما من خبير ، فى العالم أجمع ، يمكنه اصطناع الأنسجة والخلايا على هذا النحو المذهل ..

بل وأعلنوا أنه لو كان هذا الفيلم خدعة ، فإنهم على أتم الاستعداد لتعيين صانعه مديرًا لكل استديوهات الخدع السينمائية ، بأجر قد يحمل سبعة أصفار وليس ستة ..

وعندما حان دور الطب الشرعى ، كان الأمر مبهرًا ..

الدكتور (كيرل ويشت) ، كبير الأطباء الشرعيين ، فى مركز (سان فرانسوا) الطبى ، أكَّد أمام ملايين المشاهدين ، فى بث مباشر ، أنه لم يشاهد فى حياته كلها ، وعلى الرغم من خبراته الواسعة ، كائنًا يشبه هذا ، حتى بين الأجناس غير الأمريكية ..

أما من ناحية ما يحدث فى الفيلم ، فقد أصرَّ الرجل على

أنها عملية تشـريح سليمة تمامًا ، وأن من يقومون بها خبراء حقيقيون ، يؤدون عملاً مبهرًا ..

وفى الوقت نفسه ، علّق الدكتور (ويشت) على تركيب جسم الكائن ، بأنـه يختلف إلى حد كبير عـن الأجساد البشرية ، حيث يحوى ستة أصابع فى كل يد وكل قدم ، وجفنًا إضافيًا لكل عين ، يشبه ذلك الموجود عند الطيور ، كما أن الرئة عبارة عن ثلاث أسطونات متساوية الحجم ، بالإضافة إلى عدم وجود أية أعضاء تناسلية واضحة ..

وكل هذا ، من وجهة نظر الدكتور (كيرل ويشت) لايمكن أن يتواجد فى كائن حى ، من أيةَ جنسية كانت ، بل ولا حتى فى أية حيوانات معروفة ..

أما خبير الأنسجة والطب الشرعى (س . م . ميلرون) ، فقد أكَّد أنـه لا يشكّ لحظـة فـى أن مـا يراه علـى الشاشة حقيقى ، إذ إنه ، وعلى الرغم من عدم بشريته ، يتناسق تمامًا مع بعضـه البعض ، على نحو لايمكن أن يدركـه ، أو يصطنعه ، إلا خبير ..

وعلى الرغم من كل هـذا ، ظهـر مـن يرفضـون تمامًا تصديق الفيلم ..

وتصديق قصة (روزويل) كلها ..

وخرجت عشرات الاعتراضات ، التى تناقش نوع سلك الهاتف فى الفيلم ، وطراز حامل أدوات التشريح ، وغيرها ، وتدّعى أنها تعود كلها إلى زمن يلى الزمن ، الذى يُفترض تصوير الفيلم فيه ..

كل هذا والحكومة الأمريكية تتجاهل الأمر تمامًا كعادتها ..

وفى عام ١٩٩٦م ، حصلت شركة (فيدماك) على حقوق طبع وتوزيع ذلك الفيلم ، مع البرنامج الذى يناقش صحته ، وطرحته فى الأسواق تحت عنوان (تشريح كائن فضائى -

حقيقة أم خدعة) (Alien Autopsy - fact or fiction) وأصبح متداولاً ، حتى عبر شبكة الإنترنت .

ولكن يبدو أن تصديق أو عدم تصديق صحة وجود الكائنات الفضائية العاقلة ، هو أمر يرتبط بطبيعة الإنسان ، أو ربما بجيناته الوراثية ..

فعلى الرغم من كل هذا ، مازال هناك من يرفض تصديق فكرة وجود أى مخلوقات عاقلة فى الكون بخلاف البشر ، مهما كانت المبرِّرات ..

بل إنهم يرفضون حتى مناقشة الفكرة ..

ربما لأن الحكومات ، حتى الحكومة الأمريكية ، ما زالت ترفض الاعتراف بما حدث فى (روزويل) ، أو حتى بحدوثه من الأصل ..

كل مافعلته الحكومة الأمريكية ، وما قدمته وزارة دفاعها ، وقيادة قواتها الجوية ، بعد أن انتشر الفيلم ، وانتشر الاعتراض على صمتها وتجاهلها ، هو أن خرجت فى نهاية عام ١٩٩٧م ببيان مضحك ، أعلنت فى نهايته أن هذا يغلق باب المناقشة نهائيًا ، فى قضية (روزويل) ..

قال بيان القوات الجوية ، الذى يؤكِّد أنه يذيع سرًا عسكريًا لأوّل مرة ، أن ما سقط فى (روزويل) ، فى السابع من يوليو ١٩٤٧م ، لم يكن سوى طائرة اختبار سرية ، كانت تحمل بعض الدمى ، المفترض أن يتم اختبار هبوطها اضطراريًا ، إلا أن خللاً ما أدى إلى سقوط الطائرة ، وما تحمله من دمى ، على نحو جعل الكل يتصوَّر ، وفقًا لهوس الأطباق الطائرة ، الذى ساد فى تلك الآونة ، أن ما سقط ليس سوى طبق طائر ، والدمى داخله هى مخلوقات فضائية غريبة ..

ومع البيان ، نشرت القوات الجوية صورًا لأشياء مستديرة ، لها مراوح أشبه بمراوح الهليوكوبتر ، ودمى خشبية هزلية ، لا يمكن أن يخطئ طفل تمييزها ، باعتبار أن هذا ما سقط فى (روزويل) ..

وكانت مهزلة بكل المقاييس ..

فالبيان تافه وساذج إلى حد مدهش ، يستحيل تصديقه ، ويوحى بأن كاتبه شخص عسكرى محض ، لا علاقة له من قريب أو بعيد بالعلم أو الأدب ..

ثم إن البيان خضع بدوره لتحليل الخبراء ، الذين طرحوا عدة أسئلة جديدة ..

أكان من الضرورى أن تنتظر القوات الجوية خمسين عامًا كاملة ، قبل أن تصرِّح بأمر كهذا ، بعد التطوّر المذهل فى الطائرات والمقاتلات ، والذى تصبح تلك الطائرة السرية بالنسبة إليه أشبه بإطار تالف ؟!

ولماذا خرج البيان بعد أن ظهر الفيلم ، وانتشر فى الأسواق ؟!

لماذا لم يخرج من قبل ؟!

السؤال الأكثر أهمية هو : كيف يمكن أن يفسِّر البيان ذلك الفيلم ، الذى أجمع كل الخبراء على أنه حقيقى ، وتم تصويره عام ١٩٤٧م بالفعل ؟!

كان من الواضح أنها محاولة ساذجة ، من وزارة الدفاع الأمريكية ، لتمييع الأمر كله ، واللعب على عقول العامة ، الذين رفضوا تصديق البيان الجديد ، كما رفضوا تصديق البيان القديم ، منذ نصف قرن ..

ولكن من المؤكَّد أنه نجح فى تفجير القضية من جديد ..

بل وطرح قضية جديدة ..

لماذا تصرّ الحكومات دومًا على إخفاء اتصالاتها بكائنات العوالم الأخرى ؟!

الجواب الذى يتردَّد دومًا ، هو أن الحكومات تحاول إخفاء أية أدلة ، على وجود كائنات عاقلة فى كواكب أخرى ، نجحت فى الوصول إلى أرضنا ، حتى لا تصيب شعوبها بالرعب ، عندما تخشى أن تأتى هذه الكائنات محاربة أو محتلة يومًا ..

ولكن للدكتور (كارل ساجان) رأى آخر قد يهمك جدًّا ..

إنه يقول : إن التكنولوجيا ، التى حصلت عليها (أمريكا) من طبق (روزويل) ، كان لها فضل كبير ، فى تطوّر التكنولوجيا والصناعات الأمريكية فيما بعد ، لذا فهى تخفى أمر طبق (روزويل) حفاظًا على هيبتها ، وتجنبًا لمطالبة دول أخرى بحقها فى معرفة تلك التكنولوجيا ، والاستفادة منها ..

ورأى (ساجان) وجيه بحق ، فلو أن واقعة (روزويل) صحيحة ، فمن المؤكَّد أن تكنولوجيا طبق طائر متطوّر إلى هذا الحد ، ستقفز بأية دولة إلى موقع جديد ، لا ينافسها فيه أحد ..

وهذا ما تسعى إليه أمريكا دومًا ..

التفوّق ..

والانفراد ..

ولكن أيًا كانت الحقائق ، فالشىء الذى لايقبل الجدل هو أنه قد حدث أمر غامض وعجيب ومثير ، منذ مايزيد على نصف قرن ، ومازال صداه يدوى حتى الآن ..

حدث هناك ..

فى (روزويل) .

* * *

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
مذكرات طبيب
فى صعيد مصر الجوّانى
• الحلقة الخامسة •

المؤسسة العربية الحديثة

أعداء صغار..

الحياة فى حضن الجبل ، فى صعيد (مصر) ، لها طابع خاص جدًا ..

طابع يتميز بالخشونة ، والقساوة ، والحرارة الشديدة ، و ....

والخطر ..

والخطر هنا لا يكمن فى المطاريد ، أو حروب الثأر ، أو حتى فى عقول إخواننا الصعايدة ، وإنما يكمن أيضًا فى زوار غير مرغوب فيهم ، اعتادوا التجوال فى كل مكان ، بمنتهى الحرية ، لمباغتتك فى أية لحظة ، دون دعوة ، أو سابق إنذار ..

ولأننى أقمت هناك ، فى حضن الجبل ، لما يقرب من العامين ، كان من الطبيعى أن أحظى بزيارة هؤلاء الأعداء الصغار ..

العقارب بألوانها ، والثعابين والأفاعى بأحجامها المختلفة ..

وقبل أن يصيبكم الذعر والفزع ، دعونى أذكركم بأن هذا أمرًا عادىٌّ للغاية فى حضن جبل الصعيد ، والناس تتعايش معه باستسلام تام ، وتقبُّل عجيب ، بل ويتخذه البعض لعبة أيضًا ..

نعم .. لعبة .. إنك لم تخطئ قراءة الكلمة ..

ودعنى أرو لك قصتين سمعتهما بأذنىَّ هناك ، لتدرك ما أعنيه ..

فذات يوم ، وبينما كان صديقى العزيز الدكتور (محمد حجازى) فى زيارتى ، فى الوحدة الصحية فى حضن الجبل (وهذا ليس تشكيكًا فى قواه العقلية) ، سأل أحد الإخوة الصعايدة ، فى مجلس هادئ ، عن العقارب التى تنتشر فى جبال الصعيد ، وقال : إنه لم ير عقربًا واحدًا ، منذ وصل إلىَّ..

وببساطة شديدة ، انحنى أحدهم يرفع حجرًا ، تحت قدم الدكتور (حجازى) ، بحثًا عن عقرب ، ليريه إياه ..

ومنذ ذلك اليوم ، وحتى عاد الدكتور (حجازى)

إلى موطنه الأصلى ، فى شمال البلاد ، لم يضع قدمه على أرض الصعيد ، مادام فى المكان حجر واحد مقلوب ..

الطريف أنه عندما انزعج هو لما حدث ، انطلق الجميع يضحكون ، وكأنما لايصح له أن يخشى العقارب السامة القاتلة . ثم روى أحدهم أنه أراد يومًا مداعبة أمه ، فاصطاد عقربًا أسود (وهو أشدّ العقارب خطورة وسمية) ، وقطع ذيله ، ثم وضعه فى راحته ، وصافح أمه فى حرارة ، تاركًا العقرب فى كفها ، فقفزت مذعورة ، وفقدت وعيها (المسكينة) ..

ولقد انفجر الجميع ضاحكين ، لطرافة الدعابة ، فى حين فغرت أنا وصديقى الدكتور (حجازى) فاهينا ، ونحن نحدق فيهم بدهشة مستنكرة ..

وأعتقد أننا ، فى الليلة نفسها ، وضعنا أوَّل صفحة ، فى بحث طويل ، عنوانه :

« لماذا يطلقون النكات على الصعايدة » ..

القصة الثانية هى أنه ذات يوم ، جاء اثنان من شباب الصعايدة الأصدقاء لزيارتى ، وهما يقهقهان ضاحكين ، وأحدهما يحمل كيسًا من القماش ، وعندما سألتهما عما يضحكهما ، أخبرنى أحدهما أنهما قد لمحا ثعبانًا بالقرب من الطريق ، فوضعا خطة لاصطياده ، وتسلَّل أحدهما ليجذب ذيل الثعبان ، وعندما رفع الثعبان المسكين رأسه ، ليهاجم من جذب ذيله ، عاجله الشاب الثانى بضربة على رأسه بهراوته ، فقتله فورًا ..

وفى نهاية القصة ، أفرغ الشاب محتويات الكيس القماش الذى يحمله ، على سطح مكتبى ، فإذا به الثعبان الصريع ..

ولثوان حدَّقت فى الثعبان بمنتهى الرعب ، على الرغم من أنه ميت ، وأنا أتساءل : كيف سعى هذان الشابان لاصطياده ، وهو يجلس فى حاله ؟!

هه ... صعايدة !!

السؤال الآن هو ماذا ستفعل أنت ، لو التقيت بثعبان فى الطريق ؟!

هيـا .. قـف .. لاداعى للجـرى الآن .. إنـه مجـرَّد افتراض ..

واستعد للخبر المدهش ..

أنا التقيت به فى فراشى ، داخل الوحدة الصحية ..

كانت ليلة باردة كالثلج ، من الليالى التى تنعكس فيها الرياح عن الجبال المحيطة ، لتصبَّ على البلدة ، فتجعلها أشبه بالثلاَّجة ..

فى تلك الليـلة أويت إلى فراشى فى العـاشرة مسـاءً ، وأنـا أدعـو اللَّه ألا يأتينى زائـر من زوار الفجـر ، الذين انتبهوا فجأة إلى أن أحد أبنائهم يختنق ، منذ سبعة أشـهر ، وبدت لهم الحالـة عاجلـة مستعجلة ، تحتـاج إلـى إيقـاظ الطبيب فورًا ، قبل مرور عشرة أشهر أخرى خشـية أن يختنق الابن بجد ..

ومن المؤكَّد أننـى قد غرقت فـى النـوم فورًا ، ورحت أحلم أحلامًا صعيدية غير مفهومة ، حتى شعرت فجأة بجسم دافئ يلتصق بى ..

ولأننى غارق فى النـوم ، ولأننـى أيضًا معتـاد أن يدس قطى الصغير (بلبـل) نفسـه فـى فراشـى ، فـى ليـالى (طنطا) الباردة ، فقد توهَّمت أننى راقد فى فراش مدينتى ، وأن هذا قطّى ، فأفسحت لـه مكانـًا ، وواصلت نومى ، وأنـا أشعر بدفء جسده إلى جوارى..

ولسبب ما ، فتحت عينى فجأة ..

ورأيت نفسى داخل حجرة الوحدة الصحية ..

عندئذ فقط ، أدركت حقيقة الموقف ، وأننى فى (قنـا) ، ولست فى (طنطا) ..

وهنـا ، اتسعت عينـاى فى رعب ، وخفضتهما فى حذر ، لأنظر إلى ذلك النائم إلى جوارى ، فوق الغطاء ، والذى يشعّ دفئًا عجيبًا ..

ورأيته ..

ثعبان كبير لطيف ، تكـوَّر على نفسـه على نحو شديد الانتظام ، ودفن رأسه وسـط جسده الملتفّ على نفسـه ، وراح أيضًا فى سبات عميق ، وكـأنه يرقد على فـراش أبيـه ..

ولدقيقة كاملة أو يزيد ، لم أنبس ببنت شفة ، ولم أتنفس أيضًا على الأرجح ، وأنا أفكر فى هذا الموقف ، وفى كيفية الخلاص منه ..

ولم يكن هناك سوى حل واحد ..

وببطء وحذر زائدين ، رفعت الغطاء عن جسدى ، وعينى معلّقة بجسد ذلك الثعبان النائم ..

ثم فجأة ، ألقيت الغطاء فوقه ، وقفزت من الفراش ، وأنا أعدو بسرعة مائة كيلومتر فى الدقيقة ، حتى أصبحت فى نهاية الصالة ، حيث عصا غليظة طويلة ، أهداها أحد الأصدقاء للدكتور (محمد) ، طبيب الوحدة السابق ، اختطفتها ، وعدت إلى الحجرة (شوف الجنان) ورأيت صديقنا الثعبان يجاهد للخروج من الغطاء ، الذى التفّ حوله ، فهويت عليه بالعصا الغليظة مرة .. ومرة .. ومرات ..

لست أدرى بالضبط كم مرة هويت بها عليه ، ولكننى لم أتوقف ، حتى همدت حركته تمامًا ، وظهرت بقعة صغيرة من الدم على الغطاء ..

ولثوان ، توقفت عن الضرب ، وأنا ألهث بشدة ، وأحدّق

فى الفراش ، ثم لم ألبث أن قرّرت مواصلة الضرب للأمان ، فهويت على الثعبان بسبعمائة أو ثمانمائة ضربة تأكيدية ، قبل أن أتوقف بسبب التعب والإجهاد ..

وبعد ساعة تقريبًا ، وكان الفجر يلقى أضواءه الأولى على السماء ، حملت الغطاء بالقتيل ، وألقيتهما من الشرفة ، عند أقدام حارس الوحدة ، الذى فوجئ بما حدث ، فسألنى فى دهشة حائرة عن سر ما أفعله ..

وهنا ، تقمصت شخصية (طرزان) ، الذى لا يهاب كل وحوش الأدغال ، وأخبرته بكل ثقة وتعال أنه مجرد ثعبان ، وجدته فى فراشى ، فقتلته ..

هكذا ، بكل بساطة ، وكأننى صعيدى ابن صعيدى ..

المشكلة التى حدثت بعد هذا ، هى أن الكل أخبرنى أن وليفة الثعبان تصرّ دومًا على الثأر له ، وأنها تسعى للبحث عن قاتله ، حتى آخر عمرها ..

لذا فقد قام العمال بتنظيف الوحدة كلها فى اليوم التالى ، وتفتيش كل شبر منها ، ثم حرصت أنا بعدها على إغلاق النوافذ والأبواب بمنتهى الإحكام ، والنوم بعين ونصف ، خشية أن تأتى الوليفة ، ويحدث ما لا تحمد عقباه ، ورحت

أمنىّ نفسى بأنه من المحتمل أن أكون قد قتلت الوليفة ، والذكر نذل لن يأتى للثأر طبعًا ..

هذا ما كان من أمر الثعابين ..

أما العقارب فلى معها قصتان ..

وهذا طبعًا بالإضافة إلى عشرات القصص ، التى عشتها لحظة فلحظة ، كطبيب الوحدة الصحية ، وحامل المصل المضاد للعقارب ، الذى تمتلئ به مخازن وثلاجات كل الوحدات الصحية فى ريف الصعيد ..

لقد شاهد عشرات أنقذهم المصل المضاد لسم العقارب ، وعشرات آخرين اختطفهم الموت بلا رحمة ، على الرغم من المصل والرعاية الطبية ..

ولقد سمعنا أيامها عن زميل لنا ، كان يخشى العقارب بشدة ، حتى إنه كان يفحص حذاءه قبل أن يرتديه ، ويفتش حجرة نومه كل يوم ، ويعلق زمزمية مياه بحبل فى السقف ، حتى يضمن بعدها عن العقارب ، وعلى الرغم من هذا ، فقد التقط زمزميته يومًا ليشرب ، فخرج منها عقرب أسود صغير ، لدغه فى شفته العليا ، وهرب ..

ومات الزميل المسكين من شدة الرعب والفزع ، قبل حتى أن يحقن نفسه بالمصل ..

هذه القصة سمعناها جميعًا هناك ، وجعلتنا ندرك أن العقارب شىء بغيض ، ينبغى الحرص كل الحرص منه ..

ولكن الحذر لايمنع القدر ..

هذا ما تعلمته ووعيته جيدًا هناك ..

فذات يوم ، وعلى الرغم من كل ما اتخذت من احتياطات ، كنت أحضر بعض الأدوية من صيدلية الوحدة ، عندما شعرت

بألم مباغت فى قدمى ، وشاهدت عقربًا أحمر اللون يعدو مبتعدًا ..

وبسرعة ، سحقت العقرب بقدمى ، ثم هرعت إلى ثلاجة الوحدة ، وحقنت نفسى بالمصل فورًا ..

فى البداية ، شعرت بخدر عجيب يسرى فى ساقى ، حتى أسفل ركبتى ، وتصورت أنه لن يلبث أن يمتدّ إلى جسدى كله ، إلا أنه راح ينسحب فى سرعة ، حتى تلاشى تمامًا ، وتعافيت بسرعة ..

هذه التجربة جعلتنى أفقد الخوف المرضى من العقارب ، وأكتسب ثقة كبيرة فى المصل المضاد لسمومها ..

ولكن المشكلة أن المصل لا يتوافر دومًا بالوحدة ؛ ففى بعض الأحيان ينفد المصل بسبب النشاط الزائد للعقارب ، مع ارتفاع الحرارة ، ونقضى يومًا أو نصف اليوم ، قبل أن تصلنا الطلبية الجديدة منه ..

وذات ليلة شديدة الحرارة ، كنا فى انتظار وصول المصل ، عندما تم استدعائى لرؤية حالة عاجلة ، فى نجع مجاور ..

كان منزلاً صغيرًا ، شبه مظلم ، لايضيؤه سوى مصباح

زيتى صغير ، والمريض يرقد على فراش من الطوب اللبنى ، وعليه غطاء ثقيل (لست أدرى كيف) ، والعرق يغمر جسده ، من فرط الحمى ، والحرارة والغطاء ..

وقمت بتوقيع الكشف المعتاد على المريض ، ثم سحبت الغطاء ؛ لأستمع إلى نبضات قلبه ، عندئذ فوجئت بعقرب صغير ، يقفز من الغطاء ويسقط على قدمى ، ويلسعنى لسعة قويةً مؤلمة فى كعبى ..

يا للنصيب ! العقرب يرقد فى حضن الرجل ، ليلسعنى أنا بالتحديد !!

المشكلة أننى كنت على مسافة كبيرة من الوحدة ، ومن أقرب مركز للإسعاف ، كما أن الوحدة كانت تخلو تمامًا من المصل المضاد لسموم العقارب ..

وكان هذا يعنى مصيرًا واحدًا ، شاهدته بنفسى أكثر من مائة مرة ..

الموت ..

ولكن أصحاب الدار بدوا هادئين للغاية ، وهذا أمر طبيعى ؛ لأنها حياتى وليست حياتهم ، ثم أرسلوا فى طلب الحاوى ..

والحاوى هنا ليس هو ذلك الذى نراه فى الموالد ، والذى يخرج المناديل من أنفه ، والبيض من فمه .. إنه شخص آخر تمامًا ، مهمته التعامل مع سم الثعابين والعقارب ..

وبحكم مهنتى ودراستى كطبيب ، كنت أستنكر بالطبع مثل هذه المهنة ، وأعتبرها نوعًا من الدجل والشعوذة ، مما جعلنى عصبيًا متوترًا ، كأى شخص مقدم على موت محتوم ..

ولكن الرجل جاء ..

رجل فى حوالى الستين من عمره ، من قبائل بدو العرب ، هادئ ووقور جدًا .. قام بفحص موضع الإصابة فى بساطة ، ثم ربط ساقى بقوة ، أسفل ركبتى تمامًا ، وطلب إحضار وعاء به ماء ساخن جدًا ، وأذاب فيه ما يقرب من ثلاثة كيلوجرامات من الملح العادى ، ووضع قدمى فى الوعاء (ليسلقها) على الأرجح ، ثم راح يتلو عبارات عجيبة غير مفهومة ، وهو يجرح موقع اللسعة بموس جديد ، ويفصد دمى فى الوعاء الساخن ، وأصابتنى دهشة عجيبة فى البداية ، خاصة وأن الخدر راح ينسحب من قدمى بمنتهى الهدوء والسرعة ..

تمامًا كما فعل المصل من قبل ..

ثم فجأة ، انتبهت إلى أن الأمر علمى تمامًا ..

الماء الساخن جدًا سيؤدى إلى تمدُّد الأوعية الدموية ، والرباط أسفل الركبة سيحصر الأمر فى منطقة الساق ، والجرح الصغير سيُحدث اتصالاً مباشرًا ، بين الدم والماء الساخن ، الذى يحوى كمية ضخمة من الملح ، ترفع ضغطه الاسموزى ، إلى الحد الذى يكفى لسحب كل السموم من ساقى ، اعتمادًا على النظرية العلمية ، التى تؤكد انتقال السوائل ، من الوسط الأقل تركيزًا ، إلى الوسط الأعلى تركيزًا ..

إذن فهؤلاء البسطاء يستخدمون قواعد علمية سليمة ، نتجت حتمًا عن دراسة قديمة ، أو خبرات نمت بانتقالها من جيل إلى جيل ..

أما الهمهمة والكلمات العجيبة ، فهى مجرد خزعبلات ، لإضفاء جو من القدسية والرهبة على العملية كلها ..

والواقع أن هذا الموقف قد جذب انتباهى إلى جزء آخر من حياة جبال الصعيد ، لم أكن قد انتبهت إلى وجوده من قبل ..

إلى البدو ، بعالمهم الغامض والمثير ، والزاخر بعشرات الأسرار والمبهرات ..

ولأننى فضولى (وغلس) بطبعى ، فقد قرَّرت الغوص فى هذا العالم ، والبحث عما يعرفه هؤلاء البسطاء ، وماكشفوه عبر أجيال وأجيال من الخبرة ..

وهذا ما فعلته لأجد أمامى مفاجأة تفوق كل تصوراتى ..

مفاجأة مذهلة ..

بحق ؟

* * *

البقية فى الكتاب القادم بإذن الله

كوكتيل ٢٠٠٠
روايات مصرية للجيب
رجل العدالة
لعبة الخطر
قصة كاملة

ضغط (هاشم همام) ، أشهر رجال الأمن بالمنطقة ، دوّاسة الوقود فى سيارته ، التى انطلق بها عبر شوارع المدينة ، فى الثالثة صباحًا ، فى تلك الليلة الشتوية الباردة ، التى خلت فيها الطرقات من المارة تمامًا ، وهو يتعجل العودة إلى منزله ، بعد ليلة طويلة مرهقة ، قضاها فى عمل دائم مستمر ، منذ الثامنة صباحًا ، وحتى تلك اللحظة .

كان يشعر بتعب وتهالك ، لم يشعر بمثلهما فى حياته كلها ، ويتمنى لو يبلغ حجرة نومه ، ويلقى جسده المكدود على الفراش ، لينعم بنوم عميق طويل ، آملاً ألا يتم استدعاؤه فى الصباح المبكر ، لمواجهة قضية جديدة كالمعتاد ..

وفى سرعة ونعومة ، راحت السيارة الرياضية الصغيرة تشقّ طريقها ، عبر طرقات المدينة ، و (هاشم) يتمتم فى إرهاق :

ـ ينبغى أن أفكر جديًا فى البحث عن مسكن جديد ، بالقرب من مقرّ عملى ، حتى يمكننى أن أحظى ببعض النوم بين ساعات العمل على الأقل ..

عكست مرآة سيارته أضواء أخرى تقترب منه فى سرعة فتطلّع إلى المرآة لحظة ، وابتسم ابتسامة شاحبة مغمغمًا :

ـ ها هو ذا مسكين آخر ، يعود إلى منزله قرب الفجر .. إننى لست الضحية الوحيدة للعمل إذن .

اقتربت منه السيارة الأخرى بسرعة كبيرة ، جعلته يعقد حاجبيه ، وهو يتساءل فى قلق :

ـ بأية سرعة ينطلق ذلك الأحمق ؟ إنه يتجاوز حتمًا السرعات المسموح بها ، للسير داخل المدن .

نقل بصره فى تتابع منتظم قلق ، بين الطريق والمرآة ، وهو يقترب من مفترق طرق كبير ، ولاحظ أن السيارة الأخرى قد خففت من سرعتها على نحو مباغت ، ثم توقّفت فى منتصف الطريق ، فتساءل فى حيرة :

ـ لماذا توقّف هذا الـ ...

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه فى ذعر ، وهو يرفع قدمه فى سرعة كبيرة ، من دوّاسة الوقود ، ويضغط بها دوّاسة الفرامل ، وهو يهتف :

ـ ما هذا ؟

كانت هناك سيارة أخرى ، تعبر التقاطع فى سرعة كبيرة ، وعلى نحو مباغت ، حتى كاد يرتطم بها ، و ...

وفجأة توقَّفت السيارة ..

توقَّفت فى منتصف تقاطع الطريق تمامًا ، لتسد الطريق أمامه ، مما جعله يضغط فرامل السيارة بأقصى قوة ممكنة ، فأطلقت إطارات سيارته صريرًا مخيفًا ، ومالت السيارة فى عنف ، ودارت حول نفسها نصف دورة ، وهو يبذل أقصى جهده ، للسيطرة على عجلة القيادة ، ومنع السيارة من الانقلاب حتى نجح فى إيقاف السيارة بعرض الطريق ، وهو يهتف فى غضب :

- مجنون هذا الرجل مجنون حتمًا .

شعر بالدماء تغلى فى رأسه من فرط الغضب فدفع باب سيارته فى حدة ، وهو يقول ساخطًا :

سألقن هذا الأحمق درسًا قاسيًا لن ينساه أبدًا .. لقد كاد يقتلنى باستهتاره هذا .

كان يهمّ بمغادرة سيارته عندما تجمدت عيناه لجزء من

الثانية على مشهد السيارة الأولى ، التى عادت تتحرَّك من جديد ، وانطلقت نحوه ، وكأنها تتعمد الارتطام بجانب سيارته ..

وفى هذا الجزء من الثانية انتبه (هاشم) إلى أمر قد يبدو بسيطًا ، ولكنه حمل لعقله انطباعًا عجيبًا ..

كانت السيارتان من طراز واحد ولون واحد ..

لم يُدرك للوهلة الأولى ما يعنيه ذلك ، ولم يُحاول البحث عن تفسير عاجل ، إذ لم تكن الظروف تحتمل هذا ..

كان الأمر الحتمىّ الوحيد هو ضرورة إنقاذ حياته ..

وبأسرع ما يمكن ..

وفى حركة سريعة ، عاد (هاشم) إلى مقعد القيادة ، وضغط دوَّاسة الوقود مرة أخرى ، وانحرف بعجلة القيادة فى سرعة ، وانطلق بسيارته ، فى اللحظة الأخيرة ، قبل أن ترتطم به السيارة الأخرى ..

ولكنه لم ينج من الاصطدام تمامًا ..

لقد ارتطم الجانب الأيسر ، من مقدمة السيارة الأخرى ،

بالجانب الأيسر الخلفى من سيارته ، ولكنه سيطر على عجلة القيادة فى قوة ، وهو ينطلق فى الطريق المعاكس لطريق منزله ..

وفى مرآة سيارته ، رأى السيارتين تستديران ، وتطاردانه جنبًا إلى جنب مرة أخرى ، فزاد من سرعة سيارته ، وهو يهتف فى دهشة وتوتر :

ـ ماذا يفعلان ؟ إنهما مجنونان ولا ريب ..

كان ينطلق بأقصى سرعة يمكن أن تنطلق بها سيارته ، داخل المدينة ، وعلى الرغم من هذا ، اقتربت منه السيارتان بسرعة عجيبة جعلته يشعر بقلق بالغ ، وهو يقول :

ـ عجبًا ! يبدو أن السيارتين تمتلكان محركات فائقة ، أو دورات سرعة إضافية ، أو ...

ارتطمت إحدى السيارتين بمؤخرة سيارته ، فى اللحظة نفسها فبتر عبارته ، وأدار عجلة القيادة فى حركة سريعة ، وانحرف بها إلى طريق جانبى ، فانحرفت السيارتان خلفه بنفس السرعة ، وعلى نحو يوحى بأن سائقيهما من

المحترفين ، الذين يُجيدون قيادة السيارت فى مهارة مدهشة ..

وبدأ شعور (هاشم) بالقلق يتصاعد خاصة وأنه لم يكن يفهم ما تعنيه هذه المطاردة ، التى نشأت بغتة ..

كما أن قوة السيارتين المطاردتين كانت تزعجه ، وتورثه شعورًا بالعجز ..

وفى مهارة ، تجاوزته إحدى السيارتين وقطعت الطريق فى سرعة كبيرة ، ثم انحرف بها سائقها فجأة ، وأوقفها بعرض الطريق مما اضطر (هاشم) إلى ضغط فرامل سيارته بأقصى قوته ، حتى لايرتطم بها فدارت سيارته نصف دورة مرة أخرى وتوقفت بعرض الطريق بدورها .

وتصوَّر (هاشم) أن السيارة الأخرى ستصطدم به فى عنف ، فمال إلى اليمين فى حركة غريزية عنيفة ، و ...

ولكن شيئًا من هذا لم يحدث ..

لقد ساد فجأة هدوء عجيب ..

هدوء مثير ..

ومخيف ..

ولثوان لم يستطع (هاشم) استيعاب الأمر ..

لقد توقَّفت إحدى السيارتين بعرض الطريق أمامه ، على بعد مائة متر تقريبًا وتوقَّفت الثانية خلفه ، على بُعد مماثل ، دون أن يُغادر أى سائق سيارته ..

وفى توتر ، سأل (هاشم) نفسه :

ـ ماذا يفعلان ؟

بقى سؤاله بلا جواب ، وتلاشى مع ذلك الصمت المطبق ، وهذا السكون الرهيب ، الذى شمل كل شىء ، على نحو ضاعف من توتر (هاشم) ، الذى قال :

ـ هل سنبقى هكذا إلى الأبد ؟

تذكر فجأة ، بمجرَّد الانتهاء من عبارته ، أنه يمتلك جهاز إرسال ، من أجهزة الأمن ، فالتقطه فى حذر ، وهو يغمغم :

ـ هذا الأمر يحتاج إلى مساعدة خارجية .

رفع جهاز اللاسلكى إلى فمه فى بطء ، وضغط زرّ الاتصال ، وهو يقول ، دون أن يرفع عينه عن السيارتين :

ـ هنا (هاشم همام) .. أجب يا مكتب الأمن الـ ..

لم يسمع صوت الرصاصة ، ولكنه فوجئ بها تعبر نافذة سيارته الجانبية ، وتخترق جهاز اللاسلكى ، وتحطِّمه بصوت مكتوم ، فتراجع فى حدة ، وحدَّق فى الجهاز المحطم فى ذهول ، ثم نقل بصره إلى السيارتين ، وقال فى اقتضاب وتوتر وسخط :

ـ رصاصة ؟!

كان ما حدث يعنى له أمرًا واحدًا ..

أنهم لا يسعون لقتله ..

لو أراد من أطلق الرصاصة قتله ، لكان من السهل عليه أن يطلق النار على رأسه مباشرة بنفس المهارة التى أطلق بها رصاصته على جهاز اللاسلكى ، من هذه المسافة ..

ماذا يُريدون منه إذن ؟

أهى لعبة ؟!

مضت لحظات ، وهو يدرس هذا الاحتمال فى ذهنه ، ناقلاً بصره بين السيارتين اللتين توقفتا تمامًا ، وكأنهما تنتظران منه القيام بمبادرة شخصية ، ثم لم يلبث أن قال فى صرامة :

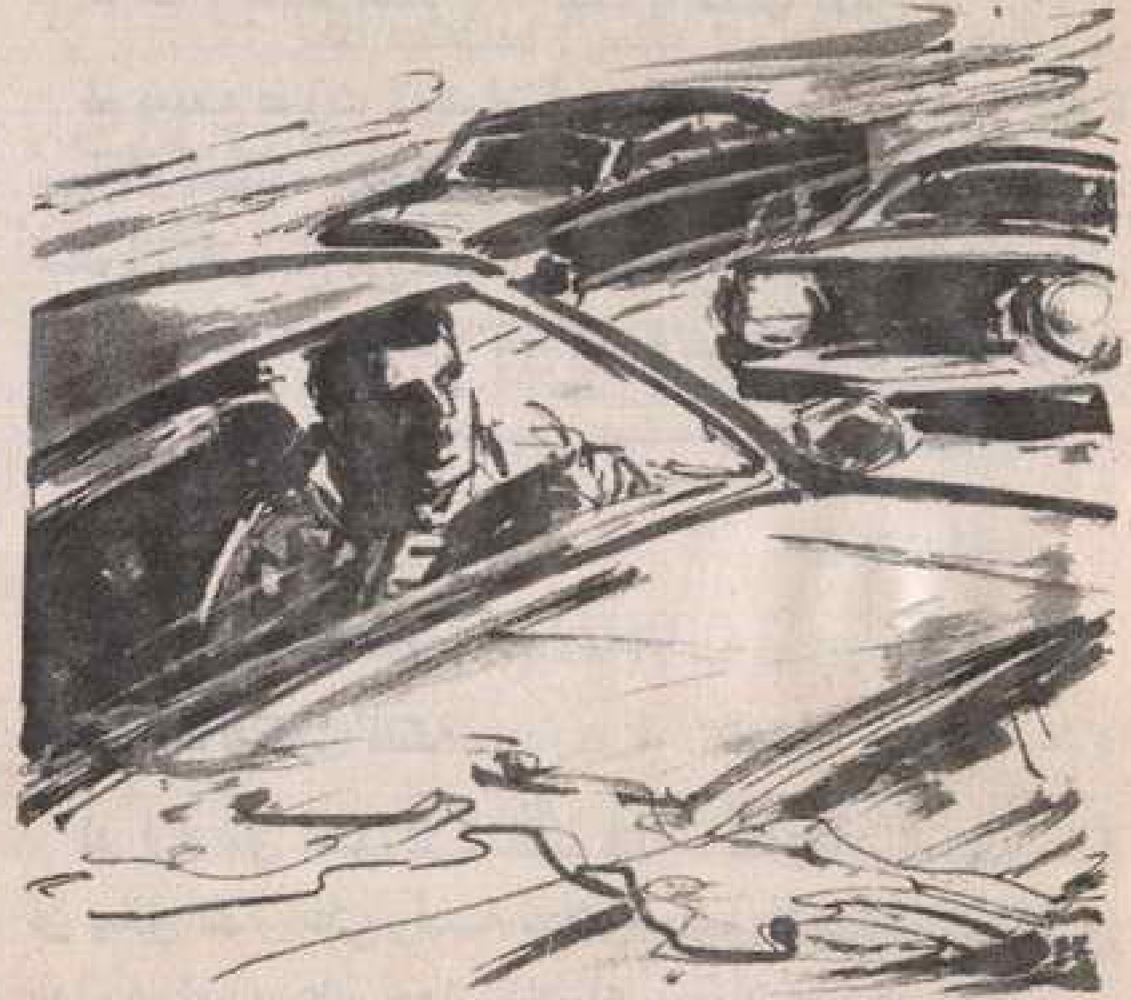

- هناك وسيلة واحدة ، للتأكد من هذا .

أدار محرك سيارته مرة أخرى ، واعتدل بها فى هدوء ، فتحركت السيارة التى تسد الطريق أمامه ، وأفسحته له تمامًا ، وكأنها تدعوه للانطلاق ..

وانطلق (هاشم) بالفعل ..

انطلق متجاوزا السيارة فى سرعة ورأى السيارة الأخرى تنطلق خلفه ، ثم تشترك معها السيارة الأولى ، فاستدار بسيارته واتخذ طريق دائرة الأمن ، وهو يقول فى حزم :

- مادامت المطاردة تستهويكما ، فسأقودكما بنفسى نحو الفخ .

كان ينطلق بأقصى سرعة ، فى هذه المرة أيضًا ، ولكن السيارتين تبعتاه بسرعة كبيرة ، وبلغتاه فى بساطة مدهشة ، ثم اتجهت إحداهما إلى يمينه ، والثانية إلى يساره بحيث طوقتاه تمامًا ، على نحو مدروس ..

وحاول (هاشم) أن يرى سائقى السيارتين ، إلا أن النوافذ الجانبية لهما كانت مصنوعة من زجاج معتم ، يحجب عنه الرؤية تمامًا ، حتى عجز عن رؤية ما بداخل السيارتين ، وأحنقه أن يعجز عن دارسة خصميه ، خاصة وأنهما أخذا ينحرفان فى بطء ، وكأنهما يجبرانه على اتخاذ طرق خاصة ، على الرغم منه ، ويقودانه إلى حيث يريدان ..

وأثار هذا المزيد من توتره وحنقه ، فحاول التخفيف من سرعة السيارة ، ليفلت من هذا الحصار ، إلا أنهما خففا

من سرعة سيارتيهما بدورهما ، بحيث لم يكن هناك فكاك من حصارهما ..

وفى قلق ، لاحظ (هاشم) أنهما يقودانه إلى خارج المدينة ، فغمغم :

ـ ما الذى يهدفان إليه بالضبط ؟

كان يتّجه ، على الرغم منه ، إلى خارج المدينة ،وكان لابد له من المقاومة ، فانطلق بسرعة كبيرة ، انتقل إليها سائقا السيارتين على الفور ، فضغط فرامل سيارته على نحو مباغت ، هاتفًا :

ـ وداعًا أيها الحمقى ..

تجاوزته السيارتان لحظات ، كانت كافية لينحرف إلى اليمين ، وينطلق عبر طريق جانبى طويل ..

ومن خلفه سمع (هاشم) صرير إطارات سيارة تتوقّف ، ثم رأى بعدها إحدى السيارتين تطادره فى سرعة ، فى حين لم يلمح السيارة الأخرى ، فتساءل فى قلق وحيرة :

ـ أين ذهبت السيارة الأخرى ؟

لم يكد يتم عبارته ، حتى ظهرت السيارة الأخرى فى نهاية الطريق ..

وأدرك (هاشم) أنه لن يربح لعبة السرعة هذه ، فمن الواضح أن سيارته لا تقارن أبدًا بقوة السيارتين الأخريين ، لذا فقد أوقف سيارته فى منتصف الطريق ، ورأى السيارة من خلفه تتوقّف ..

وعاد الصمت والسكون يشملان كل شىء ..

ومرة أخرى تساءل (هاشم) عمّا يعنيه كل هذا ؟

إنهما يحاولان جذبه إلى خارج المدينة ..

لكن لماذا ؟

لو أرادا قتله لفعلا ..

إنه حتى لا يحمل سلاحه ..

لقد تركه فى مكتبه ، وهو يتصوّر أنه لن يحتاج إليه ، فى ليلة بلغ فيها إرهاقه مبلغه ..

ومن الواضح أنه لا فكاك له من هذا ..

إلا إذا ..

قفزت فكرة ما إلى ذهنه فجأة ، فدفع باب سيارته ، وهبط منها ، وصاح فى غضب صارم :

ـ ماذا تريدان منى بالضبط ؟

لم يتلق سوى الصمت جوابًا لسؤاله ، فهتف مرة أخرى ..

ـ ماذا تريدان ؟

أتاه الجواب فى هذه المرة ، على هيئة رصاصة صامتة ، انطلقت ـ ولاريب ـ من مسدس أو بندقية ، تم تزويدها بكاتم للصوت ، وأصابت زجاج باب السيارة الأمامى ، واخترقته فى دوى مكتوم ، فقفز (هاشم) داخل سيارته مرة أخرى ، وقال فى حدة :

ـ يبدو أنه لا مفر .

أدار محرك سيارته واستدار بها فى بطء ، فاتجهت إليه السيارتان مرة أخرى ، وحاصرتاه فى هدوء وعادتا تقودانه إلى خارج المدينة ..

وفى ذهنه ، راح (هاشم) يرتب الأمر جيدا ..

إنها لعبة ..

لعبة عجيبة من نوعها ، يحاول صاحباها إثبات تفوقهما فى القيادة ..

أو أنها عملية ثأر ..

شخص ما ، أو عدة أشخاص ، يعبثون به قليلا ، كما يفعل القط بالفأر ، قبل أن يلتهمه .

ولكن من يفعل به هذا ؟!

من ؟!

بذل أقصى جهده للسيطرة على أعصابه ، وتركهما يقودانه إلى خارج المدينة ، وهو يحاول ترتيب ذهنه ، لمعرفة شخصية خصميه ..

مَن مِن أعدائه يجيد القيادة بهذه المهارة ؟

(جابر) ، و(سليم) ، و(طاهر) ، و(لبيب) ..

من يمكنه أن يتفق مع الآخر .. لمهاجمته على هذا النحو ؟

بدأ فى وضع الأسماء جنبًا إلى جنب ، ولكنه كشف أن أى اثنين منهم ، يمكنهما أن يتعاونا لإزالته وقتله ..

نفض عملية البحث عن ذهنه مؤقتًا ، عندما لاحظ أنهما نجحا أخيرًا فى دفعه إلى خارج المدينة ، وهو يجتاز مخرجها

الرئيسى ، وينطلق بينهما عبر الطريق الخارجى الطويل ..

ثم التمع البرق فى السماء ..

وهطلت الأمطار فجأة ..

أمطار غزيرة ، بدت وكأن السماء قد انشقَّت عنها ، دون سابق إنذار ..

ومع الأمطار ، خففت السيارتان سرعتهما ، وتراجعتا على نحو مباغت ، وراحتا تنطلقان خلفه وهو يتساءل :

ـ ها نحن أولاء قد أصبحنا خارج المدينة .. ماذا تريدان إذن ؟

انتبه فجأة إلى أنه يقترب من منحنى شهير خارج المدينة ، أطلق عليه السائقون اسم (منحنى الموت) ، وساوره القلق أكثر من ذى قبل ، إذ بدا له ذلك المنحنى مكانًا مثاليًا للتخلص منه ، و ...

وفجأة ضربته إحدى السيارتين من الخلف ..

ضربته فى عنف ، وكأنها تحاول دفعه إلى الأمام ، فى نفس اللحظة التى اتجهت فيها السيارة الأخرى ، لتسير إلى يساره ، محاذية إياه تمامًا ..

واقترب المنحنى ..

وكان من الضرورى أن ينحرف (هاشم) يسارًا ، ولكن السيارة التى تجاوره كانت تمنعه من هذا ، فى نفس الوقت الذى تضربه فيه السيارة الأخرى من الخلف فى عنف ..

لقد صدق حدسه ..

إنهم ينوون القضاء عليه فى هذا المنحنى ..

فى منحنى الموت ..

خفق قلبه فى قوة وعنف ، عندما أدرك أنهم يريدون قتله بالفعل هذه المرة ، وصاح لنفسه :

ـ لا .. لن يصلح الاستسلام هذه المرة ..

كان عليه ـ فى هذه المرة ـ أن يُدافع عن حياته ، وبكل ما يملك من قوة ..

وفى عنف ، انحرف (هاشم) بسيارته يسارًا واحتك جانب السيارة الأيسر بجانب السيارة الأخرى الأيمن ، وانطلق صرير رهيب مزعج ، وراحت الشرارات تنطلق من مناطق الاحتكاك ، وخصمه يصر على عدم التراجع ، وهو يزداد إصرارًا على إنقاذ حياته ..

والمنحنى يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

وفجأة انحرف (هاشم) يمينًا ، قبل أن يبلغ المنحنى ، وأفلت من السيارتين فى مناورة بارعة سريعة ، وتركهما تتجاوزانه بعدة أمتار ، وهو يضغط فرامل سيارته فى رفق ، ثم عاد بسرعة إلى يسار الطريق ، وتجاوز مع السيارتين ذلك المنحنى الخطر فى مهارة ..

وأصاب الغضب قائدى السيارتين فخففًا من سرعتهما بدورهما ، وعادا يطوقان (هاشم) ، من الخلف واليمين هذه المرة فى محاولة لدفعه إلى الارتطام بذلك الحاجز المعدنى الذى يفصل جانبى الطريق عن بعضهما ..

وفى عنف ، راحت السيارة الخلفية تضرب مؤخرة سيارته ، فى حين أخذت السيارة التى إلى يمينه تدفعه نحو الحاجز فى إصرار ..

واحتك جانب السيارة الأيسر بالحاجز فى عنف ، وتطاير الشرر أكثر عنفًا وقوة هذه المرة ، وصاح (هاشم) غاضبًا :

- أيها القذران .

ثم ضغط فرامل سيارته بغتة ، وترك السيارة الخلفية ترتطم بمؤخرة سيارته فى عنف ، فى حين تجاوزته السيارة اليمنى بمترين أو ثلاثة ، فانحرف يمينًا ، وانتهز فرصة تخفيفها لسرعتها ، للحاق به مرة أخرى ، وزاد من سرعته هو ، وتجاوزها بغتة ..

الآن أصبحت السيارتان خلفه ..

وبكل مهارته وقدراته ، راح (هاشم) ينتقل من يمين الطريق إلى يساره ، محاولا منع السيارتين من تجاوزه ، أو تطويقه ..

وتزايد انهمار الأمطار ..

ومع حركة مساحتى السيارة ، لمح (هاشم) تلك اللافتة ..

لافتة كبيرة ، مكتوبة بطلاء فوسفورى تنعكس عنه الأضواء فى شدة لتوضح وجود هوة عميقة إلى يمين الطريق ، بعد عدة أمتار ..

هوة عميقة ؟!

هوى قلبه بين ضلوعه ، عندما قرأ اللافتة ..

إنها فرصتهما الثانية ..

دفعة قوية ناجحة ، ويتخلصان منه فى قاع الهاوية ..

راح قلبه ينبض فى قوة وعنف ، وسيارته تقترب من الهوة العميقة ، وبدا من الواضح أنهما لاحظا اللافتة أيضًا ، فقد راحت إحدى السيارتين تضربه من الخلف فى عنف ، وكأنها تُحاول دفعه إلى الهوة ..

ولاحت الهوة من بعيد ..

والسيارة تقترب بسرعة مخيفة ..

وكان عليه أن يبحث عن حل لهذا الموقف ، وعن مخرج من هذا المأزق ..

والعجيب أن (هاشم) ، على الرغم من طبيعة عمله ، يكره العنف والدمار والقسوة ولا يميل إلى هذه الصفات ، إلا إذا اضطرته الظروف الطارئة لهذا ..

وهذا الموقف من أصعب الظروف الطارئة التى مرّ بها فى حياته ..

إنه يواجه الخطر ..

خطر الموت ..

ومن حقّه الدفاع عن حياته ..

وبأية وسيلة كانت ..

وانعقد حاجباه فى حزم صارم ، وهو يدرس خطته .. وكعادته ، استغرقت منه دراسة الخطة لحظة واحدة ، وفى اللحظة التالية مباشرة ، كان يضعها موضع التنفيذ ..

وضغط (هاشم) فرامل سيارته ، وترك السيارة الأخرى تدفعه أمامها ، نحو الهوة ، وهو يتّخذ يسار الطريق ، ليمنع السيارة الأخرى من محاصرته من جهة اليسار ..

ودفعته السيارة نحو الهوة ..

دفعته بكل قوتها ، وهو يضغط فرامل سيارته ، وسمع صوت احتكاك الإطارات بالأرض المبتلة ..

وأصبحت الهوة على قيد خمسة أمتار ..

أربعة ..

ثلاثة ..

اثنين ..

وفجأة أطلق (هاشم) فرامل سيارته ، وضغط دواسة الوقود ، ثم انحرف إلى اليسار ..

ولثوان ، خُيِّل إليه أنه سيهوى بسيارته فى الهوة ..

لقد انزلقت السيارة بالفعل ، وشعر وكأن إطاراتها الخلفية قد مالت فى الهواء خارج الطريق ولكنه سيطر على عجلة القيادة بيد من الفولاذ ..

أما السيارة الأخرى ، التى كانت تدفعه فى عنف ، فقد اندفعت بسرعة كبيرة مباغتة، عندما أفلتت منها سيارة (هاشم) فجأة ، ووجد قائدها نفسه يندفع نحو الهوة ، فضغط فرامل سيارته ، محاولاً الإفلات من السقوط، وانحرف بعجلة القيادة يسارًا ،ولكن السيارة انزلقت فى عنف ،فوق الأرض الزلقة و ..

واندفعت خارج الطريق ..

ولثوان ، بدت السيارة معلقة فى الهواء ، فوق الهوة ..

ثمَّ هوت ..

وتناهى إلى مسامع (هاشم) صوت الارتطام العنيف ..

ثم دوى الانفجار ..

انفجرت السيارة فى قاع الهوة فى عنف ، واشتعلت بها النيران ..

وفى مرآة سيارته ، رأى (هاشم) السيارة الأخرى تتوقَّف

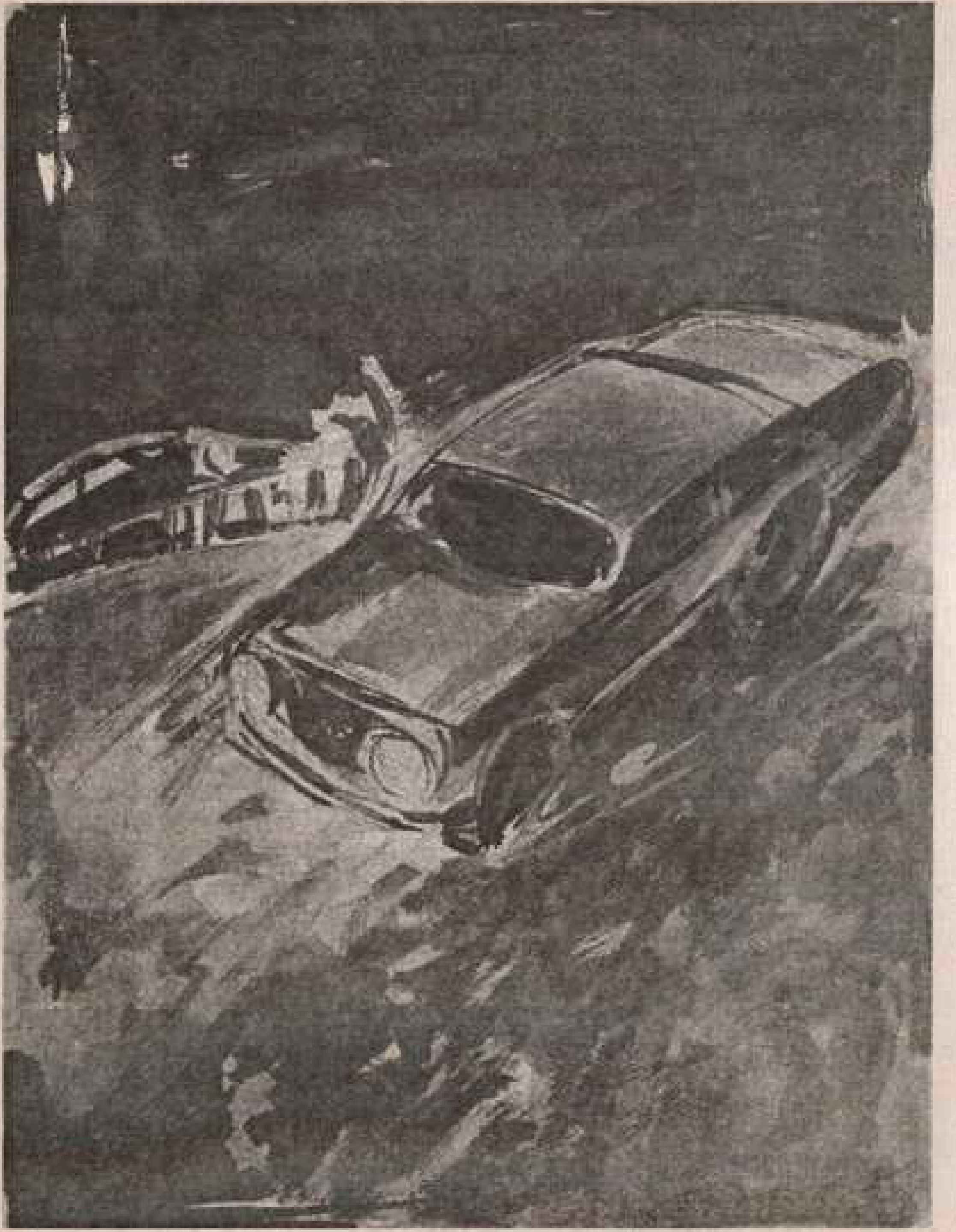

واندفعت خارج الطريق .. ولثوان ، بدت السيارة معلقة فى الهواء ، فوق الهوة .. ثمَّ هوت ..

عند الهوة ، فزاد من سرعة سيارته ، حتى بلغ أوّل منحنى ، يمكن أن يُعيده إلى المدينة ، وانحرف يسارًا ، ثم انطلق بكل سرعته عائدًا ..

وانطلقت السيارة الأخرى خلفه ..

كان من الواضح أن قائدها قد أصيب بجنون الغضب ، وأنه يطارد (هاشم) فى عنف أكثر هذه المرة ، فقد انحرف فى المنحنى بسرعة مدهشة ، كادت تخرجه عن الطريق ، ثم اندفع بسرعته القصوى ، فوق الأرض الزلقة ، على الرغم مما يعرضه له هذا من مخاطر ..

وراح (هاشم) يناور فى براعة ..

كان كل ما يسعى إليه هو أن يمنع هذه السيارة من تجاوزه ، حتى لايجبره قائدها على العودة إلى الطريق مرة أخرى ، لذا فقد انطلق أمام السيارة مباشرة ، محتملا ضرباتها ومسيطرًا على عجلة القيادة ، بكل ما يمكن من قوة ..

وفجأة تحطم زجاج السيارة الخلفى .. وفى نفس اللحظة ، تكون ذلك الثقب ، فى الزجاج الأمامى ..

وأدرك (هاشم) طبيعة هذا الشىء على الفور ..

إنه رصاصة ..

لقد بدأ قائد السيارة المتبقية ، فى إطلاق النار عليه ..

وهو يهدف إلى قتله هذه المرة ..

وأصبحت مناورة (هاشم) حتمية .. وخصمه يطلق الرصاصات ..

رصاصة ..

وثانية ..

وثالثة ..

وتهشم زجاج السيارة الأمامى أيضًا ، وارتطمت الرياح الباردة ، المحملة بالأمطار بوجه (هاشم) ، الذى راح يرتجف ، وشعر بأطرافه تتجمد ، وأنفه يلتهب ..

ومع ضربات قلبه المتلاحقة ، عبر مدخل المدينة بسرعته القصوى ، ورأى السيارة تلاحقه فى إصرار ، وقائدها يحاول تجاوزه بشتى الطرق ، ولكنه يمنعه من هذا بمناورات معقدة ، استخدم فيها كل مهاراته وخبراته فى القيادة ، لتفادى فارق القوة والسرعة ، الذى يميز السيارة الأخرى ..

وفجأة توقفت السيارة فى عرض الطريق ، ثم انحرف بها قائدها فى طريق جانبى ، واختفى تمامًا ..

وهنا تضاعف قلق (هاشم) ..

كان يعلم أن قائد السيارة سيظهر فجأة كما اختفى ، ولكنه يجهل كيف ومتى ، وأين يظهر ..

كل ما يمكنه فعله ، هو أن ينطلق بأقصى سرعة ، محاولاً بلوغ دائرة الأمن ، قبل أن يظهر قائد السيارة الأخرى ..

وتضاعف إحساسه بالبرد ، مع صعوبة الموقف ، وتمنى أكثر وأكثر ، لو أنه بلغ فراشه ، واندس تحت الأغطية السميكة ، لينعم بالدفء والأمان ..

وفجأة ظهرت السيارة الأخرى ..

ظهرت من طريق جانبى ، على نحو مباغت ، وهو تنطلق نحو الجانب الأيسر لسيارة (هاشم) ..

ثم انطلقت الرصاصات ..

ثلاث رصاصات متتالية ، لم يسمع صوتها كالمعتاد ، ولكنه شعر بإحداها تحتك بعنقه ، وسمع الأخرى ترتطم

بزجاج النافذة ، أما الثالثة ، فنفذت من باب السيارة ، واستقرت فى مسند المقعد خلفه ..

وحاول (هاشم) أن يزيد من سرعة سيارته ، إلا أنها كانت تنطلق بأقصى سرعتها بالفعل ، فلم يملك سوى الانحراف يمينا ، إلا أن هذا لم يمنع الاصطدام .

اصطدام عنيف ، أصاب النصف الخلفى من السيارة ، وأدارها حول نفسها ، قبل أن ترتطم بالإفريز ، وتقفز فوقه ، ثم تستقر ويتوقف محركها ..

ودارت السيارة الأخرى حول نفسها وواجهت سيارة (هاشم) ، ثم أشعلت أضواءها الأمامية وأطفأتها عدة مرات ، وكأنها ثور هائج ، يستعد للانقضاض على فريسته ..

وفى توتر بالغ ، راح (هاشم) يدير مفتاح سيارته ، وهو يقول :

لا تتخلى عنى فى هذه اللحظة .

ولكن السيارة أبت أن تتحرك ..

لم يشتعل محركها أبدًا ..

وانطلقت السيارة الأخرى ..

ولم يعد هناك مجال للمحاورة والمناورة .. وبكل ما يملك من سرعة وقوة ، قفز (هاشم) خارج سيارته ، قبل لحظة واحدة من ارتطام السيارة الأخرى بها ..

لقد خسر سيارته ، فى حين لم تخسر السيارة الأخرى سوى مصباح أمامى ، وجزء من شبكة المقدمة ..

وتراجعت السيارة الأخرى ، ثم استعدت للانقضاض على (هاشم) ، الذى هب واقفًا على قدميه ، ثم انطلق يعدو بأقصى سرعته .

ولربع دقيقة كاملة ، لم تتحرك السيارة ..

كان قائدها يراقب (هاشم) ، وهو يعدو بكل قوته ، محاولا بلوغ نهاية الطريق الطويل ، كقط يراقب فأرا ، قبل الانقضاض عليه ..

أما (هاشم) فأخذ يلهث فى قوة ، وهو يقول لنفسه :

ـ هيا أيها المغرور .. امنحنى ربع دقيقة أخرى ، ولن تنجح بعدها فى الإيقاع بى أبدا .

ولكن السيارة انطلقت فى هذه اللحظة ..

انطلقت بكل سرعتها بغتة ، وكأنما اتخذ قائدها قراره الحاسم ، بالقضاء على (هاشم) ..

وسمع (هاشم) السيارة تنطلق خلفه ..

ولم يكن هناك طريق جانبى واحد ، يمكنه الفرار عبره ..

واقتربت السيارة فى سرعة غاضبة ..

وراح قائدها يمنى نفسه بالثأر ..

واقترب من (هاشم) أكثر وأكثر ، بحيث لم يعد يفصلهما سوى متر أو مترين ..

وفجأة انحرف (هاشم) يمينًا ، وقفز بقدميه فوق سيارة متوقفة ، إلى جانب الطريق ، ثم قفز منها إلى الإفريز ..

وانحرفت السيارة خلفه ..

وكانت أمامه السيارة نفسها ، التى قفز فوقها (هاشم) ..

ولم يكن من الممكن تفادى الاصطدام ..

وبكل العنف ، ارتطم الجانب الأيمن للسيارة ، بالجانب الأيسر للسيارة المتوقفة ..

وفى مشهد نادر عجيب ، قفزت السيارة فى الهواء ..

وكانت قفزة رهيبة ، حلقت فيها السيارة لحظات ، ثم هوت لترتطم بالأرض فى عنف ، قبل أن تنقلب رأسا على عقب .

وتوقف (هاشم) مبهوتًا ، يلهث فى عنف ..

ثم رأى تلك اليد ، ذات القفاز الأسود ، وهى تحاول الخروج من السيارة ، فتحرك لإسعاف صاحبها ، ومعاونته على الخروج من السيارة ..

ولكن الانفجار حدث بغتة ..

انفجار عنيف ، نسف السيارة كلها ، ودفع (هاشم) عدة أمتار للخلف ، قبل أن يستقر أرضًا ، ويتطلع إلى السيارة المشتعلة فى ذهول ..

لقد نجا ..

وهذا يكفى ..

ولم يكن شعوره بالبرد قد انتهى بعد ، وهو يجلس فى حجرة مكتبه ، فى السادسة صباحًا ، وبين يديه قدح من الشاى الساخن ، وزميله (يحيى) إلى جواره يقول :

- كانت ليلة عنيفة ، ومن حسن حظك أن نجوت منها .

غمغم (هاشم) :

- لم أتصور أن يحدث هذا أبدا .

ثم سأل (يحيى) فى اهتمام :

- ولكن من هما ؟ وماذا أرادا منى ؟

مط (يحيى) شفتيه ، وهز كتفيه ، قائلاً :

- لا أحد يدرى بعد ، وربما أفادنا الطب الشرعى ، فى معرفة شخصيتهما ، وإلى ذلك الحين سيظل الأمر كله غامضًا مجهولاً ، ولقد تحريت عن الأشخاص الأربعة ، الذين كنت تشك فى أمرهم ، ووجدت أن (طاهر) و(سليم) فى السجن ، يقضيان فترة عقوبة طويلة ، أما (لبيب) و(جابر) ، فما زالا على قيد الحياة ، وقد التقيت بهما بنفسى .

ارتشف (هاشم) رشفة من قدح الشاى ، وقال فى حيرة :

- من هما إذن ؟

هز (يحيى) كتفيه ، وقال :

- فلنترك هذا للزمن .. المهم الآن أنك قد نجوت من هذه اللعبة ..

قال (هاشم) مستنكرا .

ـ لعبة ؟!

ابتسم (يحيى) ، وقال :

ـ نعم يا صديقى ، بالنسبة لرجل العدالة ، فهى جزء من اللعبة الدائمة ، التى يحيا فيها ، مضحيًا براحته وساعات نومه .

واتسعت ابتسامته ، وهو يستطرد :

ـ لعبة الخطر .

* * *

١ ـ ساعة الصفر ..

السبت .. السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م ..

الواحدة ظهرًا ..

فى تلك اللحظة فقط ، وقبيل ساعة الصفر بستين دقيقة فحسب ، تلقَّى الطيار (عزت شاهين) ، النقيب بالقوات الجوية المصرية ، الأوامر ، الخاصة بالضربة الجوية الأولى ، فى حرب الثأر ، التى طال انتظار (مصر) لها ..

وبمنتهى العنف والحماس ، خفق قلبه بين ضلوعه ، وهو يهتف بصديقه وزميل سلاحه (حسن) :

ـ أخيرًا .. أخيرًا سنفعلها يا (حسن) .

التقط (حسن) نفسًا عميقًا ، وهو يقول فى حزم :

ـ أخيرًا يا (عزت) .

انطلقا معًا إلى حيث ارتديا ثياب القتال ، وهتف (عزت) ، وهو يطلق ضحكة صاخبة :

ـ أراهنك على أننى سأسقط ضعف ما ستسقطه أنت ، من طائرات العدو .

هتف (حسن) بضحكة مجلجلة :

ـ هيهات .

راحا يتحديان بعضهما ، بأسلوبهما المرح ، الذى يحمل كل آيات الصداقة والمودّة ، وهما يتجهان إلى ممرات الإقلاع ، حيث تقبع طائرتاهما الحديثتان ، من طراز الميج السوفيتية الصنع ، والتى يقودها ، ولأوّل مرة ، طيار واحد ، دون ملاّح مساعد ..

وقبل أن يبلغا طائرتيهما بعدة أمتار ، توقَّف (حسن) فجأة ، والتفت إلى صديقه ، وأمسك عضده بأصابع قوية ، وهو يقول بتوتر مباغت :

ـ (عزت) .. لاتتهوّر كثيرًا فى أثناء القتال .. تذكَّر ما أخبرونا به فى القيادة .. إننا لانقاتل لننتحر ، ولكن لنفوز وننتصر على العدو .. والانتصار يعنى الإبقاء على حياتنا أيضًا .

ابتسم (عزت) فى حيرة متوترة ، وهو يقول :

ـ ومن جعلك تتصورَ أنه من الممكن أن أقدم على الانتحار ؟

بدا الترددُ على وجه (حسن) ، وشفتيه المرتجفتين ، قبل أن يربِّت على كتف صديقه في قوة ، قائلاً بمنتهى الحزم :

ـ لن أسمح لهم بالمساس بك يا صديقى .. صدقنى .. لن أسمح لهم أبدًا .

أطلق (عزت) ضحكة حائرة مرتبكة ، وهو يقول :

ـ ماذا دهاك اليوم يا صديقى .. تتحدَّث إلىَّ كما لو كنت مبتدئًا فى هذا المضمار !! ألم نقم بكل مناوراتنا معًا ، وكلانا يعرف قدرات الآخر جيِّدًا ؟!

تنهد (حسن) فى توتر عجيب ، وهزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ لست أدرى لماذا أشعر بـ .. حسن .. لا عليك .. وفقك الله يا صديقى .. هيا بنا .

أمسك (عزت) يده فجأة ، قائلاً :

ـ انتظر .

تطلَّع إليه (حسن) فى حيرة قلقة ، فرفع (عزت) ، مطواته الصغيرة ، قائلاً :

ـ إنه أسلوب من أساليب الهنود الحمر ، ولكننى أميل إليه كثيرًا .

قالها ، وغرس مليمترًا من نصل مطواته الصغيرة ، فى طرف سبَّابته اليسرى ، ثم فعل المثل بسبَّابة (حسن) اليسرى ، وألصق سبابته الدامية بها ، وهو يضحك ، قائلاً :

ـ الآن نحن أخوة بالدم .

ابتسم (حسن) ، قائلاً :

ـ نحن دومًا كذلك يا صديقى .

ثم عاد يربِّت على كتفه ، هاتفًا :

ـ والآن هيا بنا .. (مصر) تنتظرنا .

وانطلق كلاهما لتلبية النداء ..

نداء الوطن ..

* * *

كانت مفاجأة مذهلة للعدو الإسرائيلى بكل المقاييس ..

أكثر من مائتى طائرة ، عبرت قناة السويس ، على طول خط المواجهة ، فى لحظة واحدة تقريبًا ..

وقبل أن يستوعب العدو المفاجأة ، كـانت الصواريـخ المصرية تنهمر علـى مطارات وقواعد ومعسكرات العدو كالمطر ..

وفى خط (بارليف) ، أقوى خط دفاعى فى التاريخ ، على حد قول صانعيه ، اختفى الكل فى ارتياع ، والنيران تنهـال على كل شبر ، والانفجـارات تـدوى فـى كل سـنتيمتر مـن المكان ..

وتحت وابل النيران المكثفـة ، مـن الطيران والمدفعية ، على مواقع العدو ، هبطت زوارق جنودنا فى مياه القنـاة ، لتعبرها ببسالة ألجمت العدو قبل الصديق ..

وفى طائرته ، هتف (عزت) :

ـ رائع .. عظيم .. كم حلمت بهذه اللحظة طويلاً .

أتـاه صوت (حسن) ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، وهو يهتف بحماس منقطع النظير :

ـ إنه حلمنا جميعًا يا رجل .

كانت طائراتهم تسيطر تمامًا على سماء المعركة ، وتنسف وسائل الدفاع الإسرائيلية بلا هوادة ..

واشتعلت (سيناء) كلها بالنيران والانفجارات ..

ثم ظهرت طائرات العدو ..

أربعة أسراب مـن طـائرات الفـانتوم الأمريكيـة الصنـع ، خرجت بطياريها الإسرائيليين ؛ لمواجهة الهجوم ..

وانقضّ نسورنا البواسل ..

وفى سماء (سيناء) ، بدأت أوّل مواجهة حقيقية ، بين نسورنا وحمائمهم ..

وأثبت نسورنا أنهم الأفضل ..

وبلا منازع ..

(حسن) وحـده أسـقط أربعًـا مـن طـائرات الفـانتوم الإسرائيلية ..

و (عزت) أسقط ثلاثًا ، ببراعـة مدهشـة ، وقام بـدورة مبهرة ، وسـط النيران والدخـان ، لينقضّ علـى مؤخـرة الطائرة الرابعة ..

كان الطيار الإسرائيلى بارعًا بحق ، وهو يحاور ويناور ، محاولاً الإفـلات مـن طائرة (عزت) ، إلا أن هذا الأخير

كان يبدو وكأنما التصق به ، على نحو لا يصلح معه الفرار ..

وفى مقعده ، أمسك (عزت) عصا الإطلاق ، وهو يغمغم :

ـ الوداع يا هذا .. أنت تعادل الكفة ، بينى وبين (حسن) .

فى تلك اللحظة بالذات ، ظهرت الطائرة الإسرائيلية الأخرى ..

برزت من بين السحب الكثيفة ، وانقضَّت من أعلى على طائرة (عزت) ..

ومن بعيد ، لمحها (حسن) ..

وبأقصى سرعته ، اندفع نحو طائرة (عزت) ، وهو يهتف عبر جهاز الاتصال المحدود :

ـ من (نسر ـ ٧) إلى (نسر ـ ٦) .. احترس .. خصم آخر من أعلى ، عند الساعة التاسعة(*).

(*) يستخدم الطيارون فى المعتاد نظام عقارب الساعة ، لتحديد مواقع الأهداف المحيطة بهم .

رفع (عزت) رأسه فى سرعة ، ولمح الفانتوم التى تنقضّ عليه من أعلى ، فهتف فى صرامة ، وهو يضغط زر الإطلاق :

ـ فلنجعلها الضحية رقم خمسة .

انطلق الصاروخ من طائرته ، فى نفس اللحظة التى ارتفع هو فيها ، بزاوية عسيرة مدهشة ، ودار بطائرته حول نفسها ، على نحو مخيف ، جعل (حسن) يهتف ، وهو يتجه نحوه :

ـ رباه ! ما الذى يفعله هذا المجنون ؟

ودوى الانفجار ..

نسف الصاروخ تلك الفانتوم الإسرائيلية بعنف ، وانبعث مع انفجارها كتلة هائلة من اللهب ، أحاطت بها لمسافة ضخمة ، حتى إن طائرة (عزت) قد اخترقتها ، مع مناورتها المعقَّدة ، قبل أن تدور لمواجهة الفانتوم الخامسة ، وقد انقلبت رأسًا على عقب ..

واتسعت عينا (حسن) فى ارتياع ، مع مرأى مسار طائرة (عزت) ، التى بدا من الواضح أنها سترتطم حتمًا بالفانتوم الإسرائيلية ..

وصرخ (حسن) :

ـ احترس يا (نسر ـ ٦) .. احترس .. ولكن مسار طائرة (عزت) ، مع مسار الفانتوم الخامسة ، كان يحتم الارتطام ..

واتسعت عينا (حسن) أكثر وأكثر ..

ثم فجأة ، ظهرت تلك البقعة البرتقالية ..

شيء أشبه بكرة بلا حدود ..

كيان هلامى ، برتقالى اللون ، اندفع فجأة من بين السحاب ، بسرعة تفوق سرعة أقوى الطائرات بخمس مرات على الأقل ..

وبلغ اتساع عينى (حسن) أقصاه ، وهو يحدّق فى تلك الظاهرة الرهيبة ، وفى الطائرتين ، اللتين تزمعان الارتطام ببعضهما و ...

وفجأة ، ارتطم ذلك الكيان الهلامى البرتقالى بالفانتوم الإسرائيلية ..

ودوى الانفجار ..

انفجار هائل رهيب ، يفوق انفجار ثلاث طائرات مجتمعة ، أصيبت بعشرة صواريخ على الأقل ..

وصرخ (حسن) :

ـ لا يا (عزت) .. لا ...

وبسرعة مدهشة ، تلاشى أثر الانفجار ، وتهاوت الشظايا على مسافة واسعة للغاية ، حتى لقد بدت أشبه بمظلة من النار ، تغمر سماء المعركة كلها ..

وبكل لهفة الدنيا مشّط (حسن) السماء بعينيه .

لقد تلاشى الانفجار تمامًا ..

ولم يعد هناك أثر لذلك الكيان الهلامى البرتقالى العجيب ..

ولا لطائرة (عزت) ..

لم يعد هناك أدنى أثر ..

★ ★ ★

٢ ـ العــودة ..

السادس من أكتوبر ١٩٩٣ م ..

السادسة والنصف مساءً ..

قطـع (حسن فهمى) ، ضـابط المخابرات المصرى ذلـك الممر الطويل ، فى خطوات واسعة سريعة ، أقرب إلى العدو ، ومساعده (رأفت) يعدو خلفـه ، هاتفًا :

ـ مهلاً يا سيد (حسن) .. لاداعى للعجلة .. الرجل فى قبضتنا بالفعل .

تجاهله (حسن) تمامًا ، وهو يسرع الخطى ، حتى بلـغ ضابطًا من ضباط سلاح الطيران المصرى ، برتبـة عقيد ، استقبله متسائلاً فى توتر :

ـ السيدُ (حسن فهمى) .

صافحه (حسن) فى توتر مماثل ، قائلاً :

ـ هو أنا .. قل لى : أين هو ؟!

أشار العقيد بيده ، مجيبًا :

ـ بالداخل .. لقد وضعناه فى حجرة الاستجوابات ، ولكن ..

قاطعه (حسن) ، فى شىء من العصبية :

ـ ولكن ماذا ؟!

أجابه العقيد فى صرامة :

ـ ولكننى لست أدرى ما علاقة المخابرات العامة بالأمر .. إننا جهـة عسكرية ، والمفترض أن نتعامل مع المخابرات الحربية وحدها .

أجابه (حسن) فى شىء من الخشونة :

ـ إنها قضـية أمـن قـومى يا رجل ، ورجـال المخابرات الحربية يعلمون أننا سنتولّى الأمر هذه المرة ، وهم يتفهمون أسبابنا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف بصلابة متوترة :

ـ ويمكنك القول إنه هناك عامل شخصى .

ردَّ العقيد فى دهشة :

ـ شخصى ؟!

سأله (حسن) فى صرامة :

ـ قل لى : كيف يمكننا أن نراه ؟!

زفر العقيد ، فى عصبية واضحة ، وهو يجيب :

ـ يمكنك أن تلتقى به مباشرة ، أو تلقى عليه نظرة أوَّلاً ، عبر النـافذة ذات الزجـاج المزدوج الانعكاس ، فى الحجرة المجاورة .

مدَّ (حسن) يده فى لهفة ، نحو مقبض الحجرة ، التـى يحتجزون فيها الرجل ، إلا أن يده تجمَّدت قبـل أن تلمسـها بلحظة ، وبدت عليه علامات تفكير عصبية لبضع لحظـات ، قبل أن يعيد يده إلى جواره ، قائلاً :

ـ فلنلق عليه نظرة أوَّلاً .

قاده العقيد إلى الحجرة المجاورة ، قائلاً :

ـ فليكن .. تفضَّلا .

تردَّد (حسن) لحظـة ، عند بـاب الحجرة المجاورة ، فدفعه مساعده (رأفت) فى رفق ، وهو يغمغم :

ـ هيا يا سيِّد (حسن) .

ودلف (حسن) إلى الحجرة ..

كـان قلبـه يخفـق فـى عنـف ، وعينـاه تـدوران فـى الحجـرة الصغيرة شبه المظلمـة ، وكأنمـا يتجنَّب النظر إلى الحجرة الأخرى ، عبر الزجـاج المـزدوج ، الـذى ينقـل الرؤية فى اتجاه واحد فقط .

وقـال العقيد فى حزم ، وهو يشير إلـى نـافذة الزجـاج المزدوج :

ـ ها هو ذا .

وبصعوبة ، أدار (حسن) وجهه إلـى الزجـاج ، وألقـى نظرته الأولى ..

وبعنف ، سرت فى جسده قشعريرة باردة كالثلج ، وعيناه تتسعان عـن آخرهمـا ، وهو يحدِّق فـى ذلـك الجـالس فـى الحجرة المجاورة ..

كان شابًّا ، فى أواخر العشرينات من العمر ، عصبى إلـى حد ملحوظ ، وهو يدير عينيه فيما حوله ، فى توتر بـالغ ، وهو يرتدى زيًّا من أزياء الطيارين ، عتيق الطراز ، علـى نحـو لم يعد مستخدمًا ، إلا فى بعض دول الاتحاد الروسـى القديم .

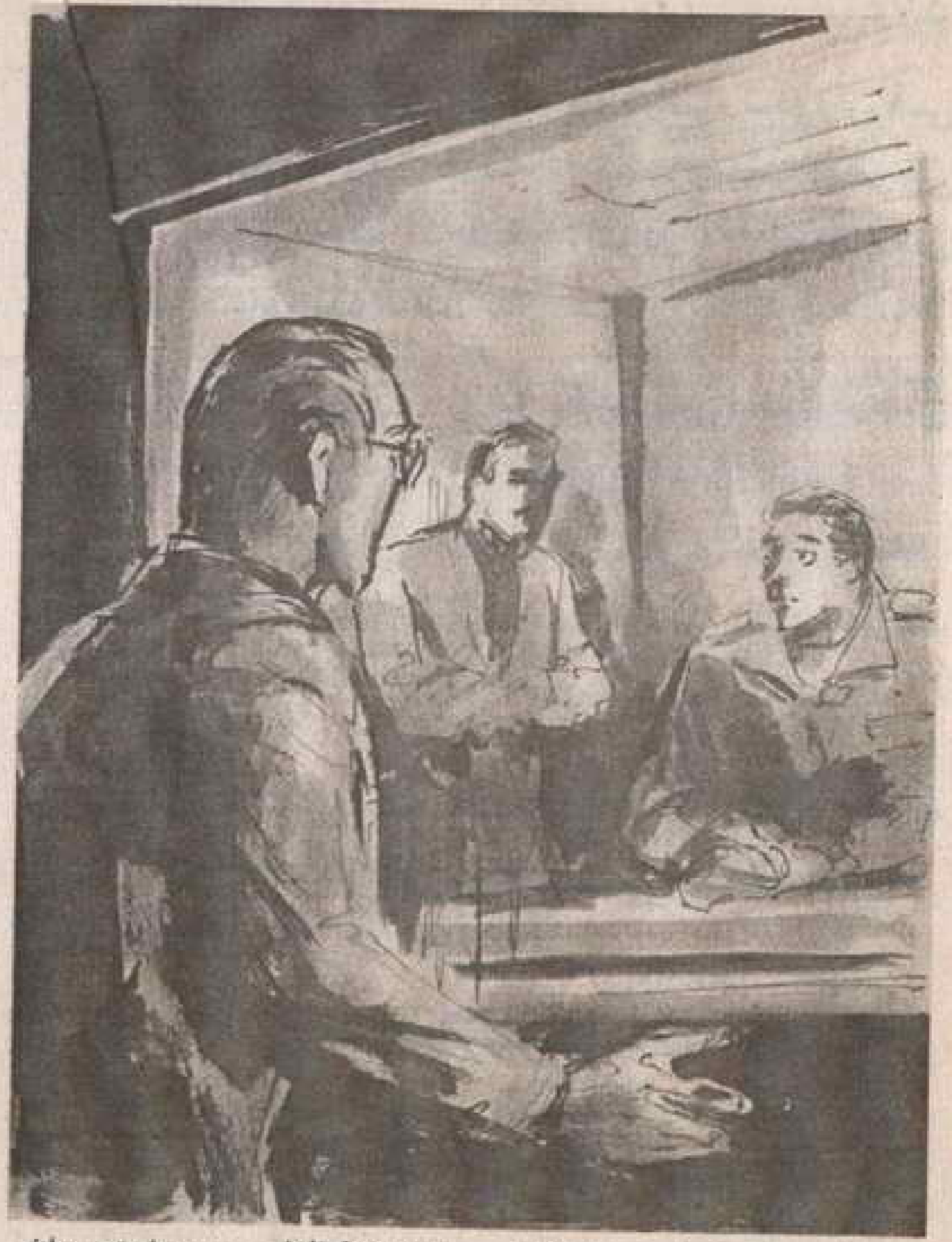

وبعنف ، سرت فى جسده قشعريرة باردة كالثلج ، وعيناه تتسعان عن آخرهما ، وهو يحدّق فى ذلك الجالس فى الحجرة المجاورة .

وبكل دهشته وذهوله واستنكاره ، هتف (حسن) :

ـ مستحيل !

اتسعت عينا (رأفت) ، للطريقة التى أطلق بها رئيسه هتافه ، فى حين التفت العقيد إلى (حسن) ، متسائلاً فى دهشة :

ـ هل تعرفه ؟!

بدا صوت (حسن) أكثر شحوبًا من وجهه ، وهو يقول :

ـ ربما .

بدت الإجابة مبهمة عجيبة ، وخاصة بعد أن عجزت قدما (حسن) بعدها عن حمله ، فتهاوى على أقرب مقعد إليه ، وهو يردّد :

ـ ولكن كيف ؟! كيف ؟!

قال العقيد فى دهشة :

ـ ماذا تعنى بكيف هذه ؟!

رفع (حسن) عينيه إليه بحركة حادة ، وهو يسأله بحزم مباغت :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟!

جذب العقيد مقعدًا ، وجلس قبالته ، قائلاً :

ـ كان هذا فى الثانية وسبع وعشرين دقيقة بالتحديد ، عندما ظهرت طائرته بغتة ، على شاشات الرادار ، فى سماء (سيناء) .. لقد أدهشنا هذا بشدة ، خاصة وأننا لم نلتقطه وهو يعبر مجالنا الجوى .

غمغم (حسن) :

ـ بالتأكيد .

انعقد حاجبا (رأفت) فى توتر ، فى حين تجاهل العقيد هذا التعليق ، وتابع بنفس الاهتمام :

ـ لقد قمنا بالاتصال به لاسلكيًّا على الفور ، وطلبنا منه تحديد هويته ، ولكنه استنكر هذا بشدة ، وتحدّث كما لو أنه ذو هوية معروفة ، بل وادّعى أنه أحد طيارينا ، وطلب الإذن بالعودة إلى القاعدة .

اعتدل (حسن) ، يسأله بصوت مختنق :

ـ وماذا فعلتم ؟!

أجابه العقيد فى سرعة :

ـ الإجراءات الطبيعية .. أرسلنا مقاتلتين لمحاصرته ، وإجباره على الهبوط حيث نريد .. ولقد تصرّف بعصبية شديدة مع مقاتلتينا ، وبدا وكأنه سيشتبك معهما ، لولا أنه كشف نفاد ذخيرته تمامًا .

غمغم (حسن) بصوت مبحوح :

ـ ربما لأنهما من طراز (فانتوم) .

بدت الدهشة أكثر على وجه العقيد وصوته ، وهو يقول :

ـ وماذا فى هذا ؟! معظم طائرات أسرابنا اليوم من طراز (الفانتوم) ! هذا أمر طبيعى .

تراجع (حسن) فى مقعده ، متمتمًا :

ـ ليس بالنسبة إليه .

انعقد حاجبا (رأفت) أكثر ، فى حين هتف العقيد فى حدة :

ـ لست أفهم شيئًا .

زفر (حسن) زفرة ملتهبة ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

ـ لا عليك .. واصل قصتك يا رجل .

مطَّ العقيد شفتيه ، وهزَّ كتفيه فى حنق ، وهو يقول :

ـ لاشىء .. لقد أجبرناه على الهبوط فى مطار (ألماظة) الحربى ، ولقد بدا شديد العصبية والتوتر ، وهو يغادر طائرته (الميج) ، وتساءل : هل احتلَّ الإسرائيليون (القاهرة) ؟!

وعندما أجبناه بالنفى ، تضاعف ارتباكه ، وبرزت حيرته أكثر وأكثر ، وراح يردِّد أنه طيار مقاتل مصرى ، برتبة نقيب ، وحدَّد رقم واسم سربه ، ولكننا لم نجد له أى أثر فى سجلاتنا كلها .

غمغم (حسن) :

ـ لقد راجعتم سجلاتكم الحديثة فحسب .

قال العقيد فى عصبية :

ـ هذا أمر طبيعى .

أشار (حسن) إليه بسبَّابته ، قائلاً :

ـ وهنا يكمن الخطأ .

هتف العقيد فى حدة :

ـ أى خطأ ؟!

زفر (حسن) مرة أخرى ، ونهض من مقعده ، ودسَّ يديه فى جيبى سرواله ، وهو يتجه نحو النافذة ذات الزجاج المزدوج ، وتطلَّع لدقيقة كاملة إلى ذلك الجالس فى الحجرة الأخرى ، قبل أن يسأل فى اهتمام :

ـ وماذا عن الطائرة ؟!

أجابه العقيد فى سرعة ، وكأنما يريحه الانتقال إلى تلك النقطة :

ـ طائرة (ميج) سوفيتية ، من ذلك الطراز ، الذى كنا نستخدمه منذ عشرين عامًا ، أيام حرب أكتوبر .. مازالت لدينا بضع طائرات من ذلك الطراز ، ولكن حالتها ليست بجودة حالة طائرته ، التى تبدو وكأنها لم تستخدم منذ زمن طويل .

سأله (حسن) :

ـ وماذا عن الصندوق الأسود لطائرته ؟!

أجابه العقيد :

ـ الطائرة كلها تخضع للفحص الآن ، بما فى ذلك صندوقها الأسود وسينبئنا الخبراء بما يجدونه على الفور .

صمت (حسن) طويلاً مرة أخرى ، وهو يتأمّل الشاب فى الحجرة المجاورة ، ثم لم يلبث أن تساءل فى خفوت :

ـ كم كان يحوى خزانها من وقود ؟!

أجابه العقيد فورًا :

ـ حوالى الثلث .. وبالمناسبة إنه وقود عتيق الطراز أيضًا ، من النوع المستخدم فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ م .

وصمت لحظة بدوره ، ثم استدرك فى اهتمام :

ـ ولم تكن هناك أية ذخائر .. لاصواريخ ، أو حتى طلقات للمدفع .

انعقد حاجبا (حسن) فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ عجبًا !

لثوان أخرى ، غلفهم الصمت التام ، وثلاثتهم يتطلّعون إلى الجالس فى الحجرة المجاورة ، عبر الزجاج المزدوج ، قبل أن يغمغم (حسن) فى حزم :

ـ فليكن !

ثم التفت إلى مساعده (رأفت) ، مضيفًا :

ـ ابدأ فى استجوابه الآن .

هتف (رأفت) فى دهشة :

ـ أنا ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ لماذا تصوّرتنى اصطحبتك إذن ؟!

سأله العقيد هذه المرة فى حيرة :

ـ ولماذا لاتستجوبه أنت ؟!

صمت (حسن) بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حزم صارم :

ـ سأدخر المواجهة كإجراء أخير .

وعاد يدير عينيه إلى (رأفت) مضيفًا :

ـ ماذا تنتظر ؟! هيا ..

تنهد (رأفت) ، ورفع كفيه وخفضهما فى استسلام ، قائلاً :

ـ كما تأمر يا سيّد (حسن) .

قالهـا ، وغـادر المكـان ، ولم تمض لحظات ، حتـى رآه (حسن) يدلف إلى الحجرة المجاورة ..

وفى أعماقه ، وعلى الرغم من تماسكه ظاهريًا ، غمغم (حسن) :

ـ مستحيل !

فما يراه أمامه كان مذهلاً بالفعل ..

وبكل المقاييس .

* * *

٣ ـ الشق ..

كل شىء يبدو هادئًا ساكنًا ، فى تلك الساعة من النهـار ، فى المنطقة الجبلية المقفرة ، جنوب غرب مدينة (قنا) ..

ولكن هذا السكون كان يخفى الكثير ..

فبين الصـخور الضخمة المتناثرة ، فى تلك المساحة المكشوفة الواسعة ، كان يكمن رجال مكافحة المخدارت ، فى انتظار وصول بعض المهربين ، بناء على معلومات سابقة ..

كلهم كانوا يلتزمون الصمت التام ، وعيونهم تلتمع كعيون الصقور ، وسط الظلام ورائحة الجبل ، و ...

وفجأة ، حدثت تلك الهزة الأرضية ..

هزَّة مباغتة ، تبلغ ما يقرب من الدرجات الخمس بمقياس (ريختر)(*) ، استغرقت ثلاث ثوان فحسب ..

(★) مقياس (ريختر) : نظام لقياس شدة وقوة الهزات الأرضية ، ابتكره الجيولوجى الأمريكى (تشارلز ريختر) ، عام ١٩٣٥م ، وتم تطويره على مدار الزمن ، وهو يقيس الطاقة الناجمة عن بؤرة الزلزال ، مع وضع بعض العوامل المهمة فى الاعتبار ، مثل نوعية وقوة الصخور بالمنطقة ، وطبيعة استجابتها للهزات الأرضية ..

ولكن تأثيرها كان عنيفًا للغاية ..

فمع انبعاثها المباغت ، خرج بعض رجال الشرطة من مكامنهم ، وانكشف الكمين ، وفسدت الخطة كلها ، وسارع المهربون بالفرار والاختفاء ..

وبكل الحنق والغضب ، هتف الرائد (يحيى) :

ـ هذا ما كان ينقصنا .. شهران من الإعداد والتخطيط والتدريب ، ثم تتحركَ الطبيعة فى موعد غير مناسب ، فتُفسد كل شىء ..

زفر النقيب (رفعت) ، مغمغمًا :

لا أحد يمكنه الوقوف فى وجه الطبيعة .. ربما كان الخير فى فشل المهمة هذه المرة .

هتف الرائد (يحيى) :

ـ أى خير ؟! هؤلاء المجرمون يفسدون أجيالاً كاملة بسمومهم البيضاء تلك ، وفشلنا فى الإيقاع بهم اليوم يعنى وقوع المزيد من ضحاياهم ، فى الأيام القادمة .

ربَتَ النقيب (رفعت) على كتفه ، قائلاً :

ـ من يدرى ؟! ربما أصابهم ما حدث اليوم بالذعر ، فتوقفوا عن ترويج تلك السموم لبعض الوقت .

قال (يحيى) فى مرارة عصبية :

ـ لو أنهم يفقهون لما ..

قاطعه أحد الجنود وهو يهرع إليه بأنفاس لاهثة ، هاتفًا :

ـ سيادة الرائد .. يبدو أن ..

صاح به (يحيى) ، مقاطعًا فى حدة :

ـ ماذا هناك ؟!

بدا صوت الجندى مرتجفًا كجسده ، وهو يشير بيده ، مجيبًا :

ـ شق يا سيادة الرائد .. الزلزال صنع شقًا فى أرض الجبل .

انعقد حاجبا الرائد (يحيى) وهو يرمى ببصره إلى حيث يشير الجندى ، مرددًا :

ـ شق ؟!

من موقعه لمح شيئًا أشبه بدخـان كثيف أحمـر اللـون ، يتصاعد من بقعة ما ، على مسـافة ستة أمتـار منـه ، فى منتصف المنطقة المنبسطة تقريبًا ..

وفى شىء من الحـذر ، لم يدر سببه ، اتجـه مع النقيب (رفعت) نحو ذلك الشق .

ولم يدر لماذا شعر فى أعماقه بذلك الخوف المبهم ، وهو يتجه نحو الشق الصـغير ، الـذى لايزيد طوله على نصف المتر ، واتساعه عن عشرة سنتيمترات على الأكثر ..

ولكنه ذلك الدخان المتصاعد منه حتمًا ..

دخان كثيف ، أحمر ، يبدو أشبه بدمـاء متبخرة أو بدخـان ينزف دمًا ، أو ...

« ما هذا بالضبط ؟! » .

قطع سؤال النقيب (رفعت) تلك الأفكـار العجيبـة ، من التداعى فى رأسه ، فهزّ يده بشىء من العصبية ، مجيبًا :

ـ مجرّد شق أحدثه زلزال .

ردّد النقيب (رفعت) ، فى دهشة مستنكرة :

ـ مجرّد شق ؟!

ثم استدرك هاتفًا :

ـ وهذا الدخان العجيب ؟!

تطلّع الرائد (يحيى) إلى الدخان مرة أخرى ، فى حيرة تمتزج بنفس الخوف المبهم العجيب ، قبل أن يهزّ رأسـه قائلاً :

ـ لست أدرى .

نطقها ، وحدّق فى الدخان مرة أخرى ، وخُيِّـل إليـه أنـه يكاد يتشكل فى هيئة ما ، أو ..

« هل نبلغ الوزارة ؟! »

مرة أخرى ، قاطعه سؤال النقيب (رفعت) ، فأجاب فى عصبية :

ـ بالتأكيد .

ثم انتزع نفسه انتزاعًا ، من أمـام الشق ، وابتعد عنـه فى خطوات سريعة ، وهو يضيف ، وقد تضاعفت عصبيته ، على نحو غير مفهوم :

ـ اترك (لطفى) و(عبد الرازق) لحراسة المكان ، ولنعد كلنا إلى (قنا) .. هيا .

لم يكد يلقى الأمر ، حتى اتسعت عيون الجنديين المكلفين فى ارتياع ، فصاح بهما النقيب (رفعت) فى صرامة :

ـ ماذا دهاكما ؟! إنكما ستحرسان المكان لبضع ساعات فحسب ، وسنرسل لكما كل ما تحتاجان إليه من طعام وأغطية .. إننا فى وضح النهار ..

وعلى الرغم مما قاله ، فما إن انطلقت بهم السيارات ، عائدة إلى المدينة ، وتاركة الجنديين خلفها ، حتى أدرك أنه ، ولسبب ما ، لايشعر بالارتياح لما يحدث ..

لايشعر بالارتياح أبدًا ..

* * *

أول ما تفجر فى أعماق (رأفت) ، عندما دلف إلى حجرة الاستجواب ، هو شعور عجيب بالإشفاق ، على ذلك الشاب ، الذى يرتدى زى الطيارين القديم ، والذى هبَّ من مقعده بحركة حادة فور دخوله ، وتراجع كمن يواجه خطرًا مخيفًا ، هاتفًا :

ـ من أنت ؟! ماذا تريد منى ؟!

أشار إليه (رأفت) ، قائلاً :

ـ اهدأ يا رجل .. اهدأ .. أنا هنا لأتحدَّث معك فحسب .

بدا مزيج من التردُّد والتوتر ، على وجه الشاب ، وهو يقول فى عصبية :

ـ ولكن أين نحن ؟! لماذا تغيَّر كل شىء على هذا النحو ؟! لماذا تبدو الأمور مختلفة ؟! لماذا ؟! لماذا ؟!

أشار إليه (رأفت) مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ اجلس واهدأ أولاً ، ودعنا نطرح أسئلتنا ، ثم نجيب كل أسئلتك .

تردَّد الشاب لحظة ، ثم لم يلبث أن جلس أمامه ، وقال فى حزم صلب :

ـ لن تحصل منى على أية معلومات ، تخصّ وحدتى أو بلدى .

ابتسم (رأفت) ، قائلاً :

ـ إنها بلدنا أيضًا يا رجل .

سأله الشاب فى تردُّد :

ـ حقًا ؟!

كان السؤال يحمل قدرًا هائلاً من الحيرة والتوتر ، إلا أن (رأفت) تجاهل جوابه تمامًا ، وهو يسأله :

ـ ماذا حدث بالضبط ؟!

تنهَّد الشاب ، قائلاً :

ـ لقد .. لقد أسقطت الطائرة الرابعة .

مال (رأفت) إلى الأمام ، متسائلاً :

ـ ثم ماذا ؟!

هزَّ الشاب رأسه ، وكست الحيرة ملامحه ، وتلك النظرة المطلَّة من عينيه ، وهو يقلب كفيه ، مجيبًا :

ـ لست أدرى .. تلك الكتلة البرتقالية ظهرت فجأة ، واصطدمت بالطائرة الخامسة ، فى نفس اللحظة التى أطلقت فيها صاروخى نحوها ، ثم .. ثم .. ثم ..

هتف به (رأفت) فى فضول :

ـ ثم ماذا ؟!

هزَّ الشاب رأسه فى قوة وهو يجيب :

ـ لست أدرى .. لقد ارتطمت أنا أيضًا بتلك الكتلة البرتقالية ، ولكن الارتطام كان أشبه بما يحدث ، لو أنك قفزت على وسادة ضخمة من الإسفنج الطرى .. وقبل أن أدرك ما حدث ، وجدت نفسى أخترقها ، واصطبغ كل شىء حولى باللون البرتقالى ، وبدا وكأن .. وكأننى داخل مخ ضخم .

هتف (رأفت) بدهشة بالغ :

ـ مخ ؟!

أومأ الشاب برأسه إيجابًا فى قوة ، وقال :

ـ نعم .. مخ بشرى ، بخلاياه وتلافيفه .. تمامًا كما كنا نراه فى كتب العلوم فى المرحلة الثانوية .. مخ اخترقته طائرتى ، و ...

صمت لحظة ، انعقد خلالها حاجباه ، وكأنما يحاول اعتصار المعلومات من ذهنه ، قبل أن يتابع ، فى شىء من الحذر :

ـ وخرجت منه .

سأله (رأفت) فى سرعة :

ـ متى ؟!

تطلَّع إليه الشاب فى دهشة ، مجيبًا :

ـ فورًا بالطبع .

مطَّ (رأفت) شفتيه ، وتراجع فى مقعده ، ولوَّح بـالملف الذى كان يحمله منذ دخوله قائلاً :

ـ هناك خطأ فى هذه الأوراق إذن .

تطلَّع الشاب إلى الاسم المدوَّن على الملف ، وهتف فى توتر :

ـ إنه ملفى .

أجابه (رأفت) وهو يفتح الملف :

ـ بالضبط .. وملفك هذا يقول إن اسمك (عزت محمد عبد الرحمن شاهين) ، الشهير بـ (عزت شاهين) .. كنت طيارًا مقاتلاً ، فى القوات الجوية المصرية .

هتف الشاب مستنكرًا :

ـ كنت ؟!

تابع (رأفت) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ شاركت فى الضربة الجوية الأولى ، يوم السادس من أكتوبر ، عام ١٩٧٣ م ، تحت كـود (نسر ـ ٦) ، وبعد الحرب ..

قاطعه الشاب فى حدة :

ـ بعـد الحـرب ؟! مـاذا تعنى ببعد الحـرب هـذه ؟! من المستحيل أن تنتهى حربنا مع العدو الإسرائيلى بهذه السرعة .

ارتفع حاجبا (رأفت) ، وهو يهتف :

ـ سرعة ؟! الحرب انتهت منذ زمن طويل يا رجل ، وملفك هذا محفوظ هنا منذ ذلك الحين ..

هتف الشاب فى ذعر مستنكر :

ـ ملفى محفوظ .

نطقها ، وهبَّ من مقعده فى حدة ، صائحًا :

ـ ما الذى تريد أن تقتعنى به بالضبط ؟! لماذا تتحدَّث بهذا الأسلوب ؟! ما الذى تريد قوله بالتحديد ؟!

فتح (رأفت) الملف ، ووضـعه على سطح المنضدة ، وهو يقول فى حدة مماثلة :

- أريد أن أقول : إن هذا هو موقفك الرسمى الآن .

حدَّق الشاب فى صورته داخل الملف ، وفى الختم الكبير إلى جوارها ، والذى يحمل كلمة واحدة ، كادت تزلـزل كيانه ، وهو يردِّدها صارخًا :

- مفقود ؟!

أجابه (رأفت) فى صرامة :

- ومنذ عشرين عامًا .

اتسعت عينا الشاب عن آخرهما ، وتراجع كـالمصعوق ، حتى ارتطم ظهره بالجدار ، وهو يردِّد بكل هلع الدنيا :

- مفقود ؟! منذ عشرين عامًا ؟! ماذا تقول يا هذا ؟! إنها ليست حقيقة .. إنه كابوس .. كابوس بشع ..

أتاه صوت من مدخل الحجرة ، يقول فى حزم :

- هناك وسيلة واحدة لحسم الأمر .

استدار الشاب فى حدة ، إلى مصدر الصوت ، وحدَّق فى ذلك القادم الجديد لحظة ، قبل أن يهتف بارتياع أكبر :

- من .. من أنت ؟! إنك تشبه صديقى (حسن) ، ولكنك.. ولكنك ...

لم يمهله (حسن) لإتمام عبارته وإنما اندفع نحوه ، وأمسك يده اليسرى ، ورفعها إلى عينيه ، وحدَّق لحظة بنظرة عجيبة

للغاية ، فى ذلك الجرح الحديث ، فى سبَّابة يد الشـاب ، والذى لم يبدأ حتى فى تكوين جلطة الاندمـال الأوليـة ، ثم أفلت اليد ، ورفع يده هو أمام الشاب ، وأشـار إلـى جرح سبَّابته ، الـذى اندمل منـذ عشرين عامًا كاملة ، وهو يقول بلهجة غلبها تأثُّر واضح :

ـ ولكننى أكبر سنًا .. أليس كذلك ؟!

واتسعت عينا (عزت) عن آخرهما ، وهو يحدّق فى وجه صديقه القديم ..

لقد كان لقاءً مذهلاً ..

ومستحيلاً ..

تمامًا .

* * *

٤ـ لغز الألغاز ..

انعقد حاجبا الرائد (يحيى) ، فى توتر شديد ، عندما وصلت به السيارة ، التى تقلّ مأمور الناحية ، ومهندس مصلحة المساحة ، إلى موضع الشق ، وهتف فى غضب ، وهو يدير عينيه فيما حوله :

ـ أين (لطفى) و (عبد الرازق) ؟! كيف غادرا المكان ، على الرغم من الأوامر ؟!

غمغم المأمور بقلق ، ونظره معلق بالدخان الأحمر الدموى ، الذى بدا كثيفًا على نحو كبير ملحوظ :

ـ ربما يقضيان حاجة هنا أو هناك .

هتف (يحيى) مستنكرًا :

ـ معًا .

توقّفت السيارة فى تلك اللحظة ، على مسافة عشرة أمتار من الشق ، فغادرها مكملاً فى عصبية :

ـ سيدفعان ثمن هذا غاليًا .. سوف ..

بتر عبارته بغتــة ، عندمـا لمـح ببندقيـة أحد الجنديين ، ملقاة إلى جوار الشق ، فاكتسب صوته رنة متوترة ، وهو يشير إليها ، قائلاً :

ـ ما الذى يعينه هذا بالضبط ؟!

قبل أن يجيب أحد سؤاله ، انطلقت شهقة قوية من حلق مهندس المساحة ، وهو يهتف :

ـ وتقولون إنه شق صغير ؟!

دفع (يحيى) قدميه دفعًا ، إلى حيث يقف المهندس مـع المأمور ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، بدهشة لا محدودة ..

لقد اتسع الشق ..

اتسع بشدة ..

طوله الآن لايقل عن أربعة أمتار ، وعرضه يبلغ نصف المتر على الأقل ، والدخان الذى يتصاعد منه صار أكثر كثافة علـى نحو مخيف ، على الرغم من أنه يتلاشى بسرعـة ،دون أدنى أثر ، على ارتفاع متر واحد من سطح الأرض ..

أما أعماق الشق ، فقد كانت مضيئة متوهجـة ، بلـون

برتقالى عجيب ملحوظ ، على الرغم من أن الشمس لم تغرب تمامًا بعد ..

وفى دهشة تحمل رنة ذعر ، قال المأمور :

ـ أعتقد أنه من الأفضل أن نبلغ المسئولين فى (القاهرة) .. من الواضح أن الأمر يفوق قدراتنا بكثير .

أومأ (يحيى) برأسه ، قائلاً :

ـ نعم .. أعتقد هذا .

نقل المهندس بصره بينهما لحظة ، ثم انفرجت شفتاه ، وكأنما يهمّ بقول شىء ما ، و ...

وفجـأة ، انعقد حاجباه فى شدة ، واستدار يحدّق فـى الشق ، هاتفًا :

ـ هل سمعتما هذا ؟!

سأله المأمور ، فى دهشة حائرة :

ـ سمعنا ماذا ؟!

أجابه كالمأخوذ :

ـ النداء .

تبادل المأمور والرائد (يحيـى) نظرة دهشـة عارمـة ، قبل أن يغمغم الثانى فى حيرة بلا حدود :

ـ أى نداء ؟!

اتجه المهندس نحو الشق كالمسحور ، وهو يجيب :

ـ نداؤهم .. هؤلاء فى الأعماق .. إنهم ينادوننى .

اتسعت عينا المأمور عن آخرهما ، وراح يردِّد فى توتر لامحدود :

ـ لابد أن نبلغ (القاهرة) .. لابد أن نبلغ (القاهرة) فورًا .

أما الرائد (يحيى) فقد اندفع نحو المهندس ، وهتف به :

ـ انتظر يا هذا .. لاتقترب من هذا الشق .

استدار إليـه المهندس بحركة حادة ، جعلتـه يتجمَّد فى مكانه ، ثم قال بلهجتـه العجيبـة المأخوذة ، وعينيـه الزائغتين الشاردتين :

ـ لابد أن أذهب .. لايمكننى ألا ألبى النداء .

ثم عاد يلتفت إلى الشق ، ورفع ذراعيه بمستوى كتفيه ، هاتفًا :

ـ أنا قادم ..

وثب (يحيى) نحوه ، صائحًا :

ـ لا .. لا تفعل .

خُيِّل إليه لحظـة أن الدخان الدمـوى قد تحـوَّل بغتـة إلى قبضة دخانية ، أحاطت بالمهندس المسكين ، ثم جذبته فـى عنف ، ليختفى جسده فى الشق تمامًا ..

ومع اختفائـه ، تـألق الشقّ أكثر وأكثر ، بذلك الوهج البرتقالى المخيف ..

ثم اتسع الشقّ كله بغتة ..

اتسـع ليبلـغ طوله ستة أمتـار ، وعرض ما يزيد على الثمانين سنتيمترًا ..

ومع اتساعه ، تراجع (يحيى) كـالمصعوق ، فـى حين أطلق المأمور شهقة قوية ، قبل أن يصرخ :

ـ لابد أن نبلغ (القاهرة) .. فورًا .

وكان على حق فى ارتياعه هذا ؛ فما يراه رهيب .. رهيبًا بحق ..

* * *

« لم نعثر على حطام طائرتك أبدًا .. »

نطق (حسن) العبارة فى تردُّد ، وهو يتطلَّع إلـى (عزت) ، الذى لم يفارقه ذهوله بعد ، والـذى ردَّد بلهجة أقرب إلى الشرود :

- حقًا ؟!

تابع (حسن) :

- لقد رأيت ما حدث بعينى .. رأيت طائرتك تغوص فى قلب ذلك الكيان الهلامى البرتقالى .. ثم لم يعد هناك أثر لأى شىء .. ولقد ذكرت هذا فى تقريرى الرسمى ، عندما لم تعد من الضربة الأولى ، ولكن الحرب كانت قد اشتعلت بالفعل ، وتطوَّرت بسرعة ، ولم يبال أحد ، فى خضَم القتال ، برؤيا غير مؤكدة كهذه .

ترقرقت عينا (عزت) بدموع ثائرة ، انحبست خلف أسوار كبريائه ، ولكنها أهلَّت مع ارتجافة شفتيه ، وهو يسأل :

- كم مضى من وقت .

ازدرد (حسن) لعابه ، مجيبًا فى حذر :

- عشرون عامًا .

انتفض جسد (عزت) فى عنف ، واتسعت عيناه فى ارتياع بلا حدود ، وهو يصرخ :

- عشرون ؟!

ثم هزَّ رأسه فى قوة ، مضيفًا :

- مستحيل ! إنها مجرَّد لحظة بالنسبة لى .. لحظة اخترقت خلالها شيئًا ما ، ثم خرجت منه .. مجرَّد لحظة .

وهب من مقعده فى حدة شديدة ، صائحًا :

- لا .. مستحيل ! لايمكن أن يحدث هذا .. إنه مجرَّد كابوس .. كابوس بشع .

اقترب منه (حسن) فى حذر ، وربَّت على كتفه ، قائلاً :

- بل حقيقة يا صديقى .. حقيقة .. صحيح أنها مدهشة ، مذهلة ، مخيفة ، وتبدو أشبه بروايات الخيال العلمى .. إلا أنها حقيقة .

ردَّد (عزت) فى مرارة :

ـ عشرون عامًا .. يا إلهى ! يا إلهى !

ثم رفع عينيه إلى (حسن) بحركة حادة ، متسائلاً :

ـ ولكن من فعلها .

بدت حيرة متسائلة فى عينى (حسن) ، فأضاف (عزت) فى انفعال :

ـ من انتصر فى حرب أكتوبر ؟! من ؟!

ارتفع رأس (حسن) وارتسمت على شفتيه ابتسامة مزهوّة ، وهو يجيب :

ـ نحن .

تألّقت عينا (عزت) ، وهو يهتف :

ـ مرحى .

ثم عاد يسأل فى لهفة :

ـ هل استعدنا (القدس) ؟!

تلاشت ابتسامة (حسن) وهو يجيب :

ـ إنهم يتفاوضون من أجل هذا يا صديقى .

هتف (عزت) مستنكرًا :

ـ يتفاوضون ؟!

عادت ابتسامة (حسن) باهتة ، وهو يقول :

ـ إنها عشرون عامًا يا صديقى ، ولقد تغيَّرت أمور كثيرة ، وتطوَّرت أمور أخرى ، و ...

قبل أن يتمَّ عبارته ، تراجع (عزت) بحركة حادة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، فى ارتياع مخيف ، فارتبك (حسن) ، وقال :

ـ الأمر ليس بهذا السوء يا رجل .. لقد استعدنا (سيناء) كلها ، و ...

قاطعه (عزت) ، وهو يهتف :

ـ النداء .

ردَّد (حسن) مبهوتًا :

ـ النداء ؟! أى نداء ؟!

اتجه (عزت) نحو باب الحجرة ، وبدا مأخوذا مسحورًا ، وهو يردِّد :

ـ إنهم ينادوننى .. لابد أن أذهب .. لابد .

هتف (حسن) ، وهو يعترض طريقه :

ـ تذهب ؟! إلى أين ؟!

وانعقد حاجبا (رأفت) بشدة ، مع مظهر (عـزت) العجيب ، وهو يواصل طريقه ، وكأنما لا يرى (حسن) ، ويواصل ترديده :

ـ لابد أن أذهب .. لابد .

أمسك به (حسن) فى قوة ، قائلاً :

ـ لن تذهب إلى أى مكان .

ارتفعت يدا (عزت) بغتة ، فى سرعة مدهشة ، وقبـض على ذراعى (حسن) ، ورفع هذا الأخير عـن الأرض فـى خفة ، على الرغم مما يتمتّع به من قوة ومرونة ، ثم ألقاه جانبًا فى عنف ..

وفى نفس اللحظة ، التى ارتطم فيها جسد (حسن) بالأرض ،

استلّ (رأفت) مسدسه فى سرعة ، واقتحم العقيد وجنوده الحجرة ، و ...

« لا تطلقوا النار » .

صرخ (حسن) بالعبارة ، وهو ينهض فى سرعة ولهفة ، ولكن (رأفت) صاح ، وهو يجذب إبرة مسدسه فى حزم :

ـ إنه يسعى للفرار .

أمسك (حسن) معصمه فى قوة ، صائحًا :

ـ قلت : لا تطلقوا النار .

كان (عزت) يواصـل طريقـه بنفس الشرود والآلية ، وكأنما لا يشعر بكل ما يدور حوله ، فانعقد حاجبا العقيد ، وأشار إلى رجاله ، قائلاً فى صرامة :

ـ نريده حيًّا .

انقض جنديان على (عزت) ، فكبَّل أحدهما ذراعيه فى حين دار الثـانى حوله فى سرعـة ، ولكن (عزت) انتزع الجندى من خلفه بقوة مذهلة ، وضرب به الجدار فى عنـف ، وهو يهتف :

ـ لابد أن ألبى النداء .

وبضربة فنية مدروسة ، هوى الجندى الآخر على مؤخرة عنق (عزت) بكعب مدفعه الآلى ، فزاغت عينا هذا الأخير أكثر ، ثم هوى أرضًا كالحجر ..

وبكل دهشته وحيرته ، هتف (حسن) :

ـ ماذا حدث ؟! يا إلهى ! ماذا حدث ؟!

لم يدر أنه ، وفى نفس اللحظة التى نطق فيها عبارته ، كان الدخان الدموى ، المتصاعد من ذلك الشقّ فى جبال (قنا) ، يتموّج فى عنف ، وكأنما يعلن غضبه وثورته ..

أما الشق نفسه ، فقد كان يتسع ..

ويتسع ..

ويتسع ..

بلا حدود .

★ ★ ★

٥ ـ الخـوف ..

« أمر غير معقول على الإطلاق .. » .

نطق مدير المخـابرات بالعبـارة فـى توتـر ، وهـو يعقـد كفيه خلف ظهره ، متطلعًا عبر نـافذة حجرتـه الواسـعة ، قبل أن يطلق من أعمق أعماقه زفرة حارة ، مستطردًا :

ـ طيار تختفى طائرته منذ عشرين عامًا ، دون أن تترك خلفها أدنى أثر ، ثم تعود للظهور فجأة ، وهـو بداخلهـا ، لم يكبر يومًا واحدًا ، ولم يلتئم جرح سبَّابته بعد ! يـالهـا مـن قصة ! إنهـا أشبه بروايات الخيال العلمى ، ومهاترات السفر عبر الزمن .

زفر مرة أخرى ، قبل أن يلتفت إلى (حسن) متسائلاً :

ـ هل فحصتم كل الوثائق ؟!

أومأ (حسن) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ إنه (عـزت) الـذى أعـرفه ، وليـس شخصـًا ينتحـل شـخصيته .. لقـد راجعنـا بصماتــه ، وبيانــات طائرتــه ، وحالتها .

تساءل مدير المخابرات :

ـ ثم ؟!

واصل (حسن) :

ـ ليس هناك أدنى شك .. ربما تعجز عقولنا عن إدراك ما حدث أو استيعابه ، ولكن (عزت) قفز عشرين عامًا فى لحظة واحدة ، وعاد إلينا .

زفر المدير للمرة الثالثة ، متمتمًا :

ـ سبحان الله العلى القدير .

قال (حسن) ، وصوته يحمل توترًا ملحوظًا :

ـ السؤال الآن هو ماذا ينبغى أن نفعل ؟! إنه هنا .. فى زمننا الحالى ، ومن الواضح أن عقلـه مصاب بلوثـة مـا ، لايمكننا تفسيرها .. إنهم مازلوا يحتفظون به ، فـى مطـار (ألماظة) الحربى ، فى انتظار أوامرنا ..

هزَّ المدير رأسه ، قائلاً :

ـ بل السؤال الحقيقى هو لمـاذا ؟! .

انعقد حاجبا (حسن) ، وهو يردِّد الكلمة فى دهشة :

ـ لماذا ؟!

أشار المدير بسبَّابته ، قائلاً :

ـ نعم يا (حسن) .. لماذا ؟! لماذا عاد (عزت) للظهور الآن ، بعد عشرين عامًا ؟!

تساءل (حسن) فى حذر :

ـ أتقصد كيف ؟!

أجابه المدير فى حزم :

ـ بل لماذا ..

ثم ربَّت على كتفه ، متابعًا :

ـ عندما تبلغ مثل عمرى ، ستتعلم قاعدة مهمة فى هذه الحياة ، ألا وهى أنه ما من شىء فى الوجود يحدث عبثًا .. الله (سبحانه وتعالى) يدير هذا الكون بدقة تعجز عقولنـا كبشر عن استيعاب ذرة واحدة منها ، ومادام (عزت) قـد عاد ، فهناك سبب إلهى لعودته حتمًا .

تساءل (حسن) :

ـ مثل ماذا ؟!

هزَّ المدير رأسه ، قائلاً :

ـ قلت لك : إن عقولنا تعجز عن استيعاب الهدف ، ولكن ثق بأن الأيام ستجيب هذا السؤال حتمًا .. ثق بهذا تمامًا .

نطقها المدير ، دون أن يدرك أن الجواب سيأتى سريعًا بأسرع من كل تصوراته ..

كلها ..

بلا استثناء ..

★ ★ ★

اتسعت عينا الدكتور (جمال) ، أستاذ الجيولوجيا(*) بكلية العلوم ، وهو يحدّق فى ذلك الشق ، الذى كاد يلتهم المنطقة كلها ، على الرغم من أن كثافة الدخان الأحمر المتصاعد منه لم تتزايد ، وظلّت تتلاشى فى الهواء ، على ارتفاع متر واحد من سطح الأرض ..

(*) جيولوجيا : علم يبحث فى أصل الأرض ، وتاريخها التركيبى والطبيعى ، وكذلك المواد التى تتكوّن منها ، وجميع التغيرات التى وقعت ، فى أثناء تكونها وتطوّرها ، وأحد فروعها يعمل على رصد التغيرات والنشاطات الأرضيـة ، ودراستها ، وتحليل أسبابها ومقدماتها .

اتسعت عينا الدكتور (جمال) ، أستاذ الجيولوجيا بكلية العلوم ، وهو يحدّق فى ذلك الشق ..

وبكل دهشته ، الممتزجة بشىء من الخوف المبهم ، قال الرجل :

ـ إننى لم أقرأ عن شىء كهذا قط .. إنه ليس نشاطًا بركانيًا ، أو تغيرًا جيولوجيًا طبيعيًا ، أو حتى أى شىء آخر .. إنها ظاهرة غير طبيعية ، وغير معروفة .

سأله الضابط الموفد من (القاهرة) فى قلق :

ـ هل تعتقد أنه سيزداد مع الوقت ؟!

راجع الدكتور (جمال) الأوراق التى أمدوه بها ، وعاد يتطلّع إلى الشق الضخم ، فى حيرة مذعورة ، قائلاً :

ـ بناء على ما ورد هنا ، لم يكن هذا الشق يزيد على نصف المتر طولاً ، وعشرة سنتيمترات اتساعًا ، فى الثالثة إلا عشر دقائق ، من ظهر اليوم ، وها هو ذا يبدو فى حجم بحيرة صغيرة ، ونحن بعد فى السابعة والنصف مساءً ، وهذا يعنى أنه لو استمرّ الاتساع على هذا المعدَّل ، فسيلتهم هذا الشق محافظة (قنا) كلها ، خلال يوم واحد ، ثم يواصل اتساعه ، ليلتهم (مصر) كلها خلال ثلاثة أيام على الأكثر .

حدّق الضابط فى وجهه ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ هل تمزح ؟!

هزّ الدكتور (جمال) رأسه فى قوة ، مجيبًا :

ـ مطلقًا .

اتسعت عينا الضابط فى ارتياع ، وهو يحدّق فى ذلك الشق الهائل ، بنظرة ملؤها الخوف ، قبل أن يتساءل :

ـ أهو رأى علمى محض ؟!

أومأ الدكتور (جمال) برأسه ، وقال فى حزم واثق :

ـ بالتأكيد .

انعقد حاجبا الضابط فى شدة ، وهو يقول :

ـ هذا يعنى إذن أن الأمر أخطر مما كنا نتصورّ .. أخطر بكثير .. نطقها بصوت حمل نبرة غريبة ..

نبرة دهشة ، و ...

وخوف ..

* * *

« لست أذكر حرفًا واحدًا من كل هذا !! »

نطق (عزت) العبارة بدهشة عارمة ، وهو يحدِّق فى شاشة التليفزيون ، التى تعرض ما تم تصويره فى حجرة الاستجوابات ، منذ بضع ساعات ، وتملَّكه خوف مبهم ، وهو يتساءل عما دفعه إلى هذا الهذيان ، فى حين غمغم (حسن) :

ـ من المؤكَّد أن القفز لعشرين عامًا من الزمن ، فى لحظة واحدة ، يؤدى إلى تغيرات كثيرة .

أدار (عزت) عينيه إليه فى حركة حادة ، قائلاً :

ـ تقصد إلى الجنون !

صمت (حسن) لحظة قبل أن يجيب :

ـ علماء النفس يؤكدون أن تجربتك هذه لابد أن تترك شيئًا من التوتر النفسى .

ردَّد (عزت) فى مرارة :

ـ التوتر النفسى ؟!

هزَّ (حسن) كتفيه ، قائلاً :

ـ الأمر ليس هينًا .

خفض (عزت) عينيه ، وتمتم بمرارة أكبر :

ـ بالتأكيد .

شعر (حسن) بإشفاق وتعاطف شديدين ، تجاه صديق عمره ، الذى يبدو له وكأنه قد عاد من سبات عميق ، استغرق عقدين من الزمان ، وتطلَّع إليه بضع لحظات ، فى صمت مهيب ، قبل أن يسأله فى خفوت :

ـ ألا تذكر شيئًا مما حدث ؟!

تمتم (عزت) :

ـ لقد أخبرتكم بكل ما أذكره .

قال (حسن) بنفس الخفوت :

ـ مستحيل !

رفع (عزت) عينيه إليه بحركة حادة ، قائلاً بدهشة :

ـ ألا تصدِّقنى ؟!

حاول (حسن) أن يبتسم ، وهو يجيب :

ـ هل سبق أن كذَّبتك ؟!

تطلَّع إليه (عزت) لحظة ، ثم لم يلبث أن خفض عينيه ، متمتمًا :

ـ مطلقًا .

اعتدل (حسن) ، وتنحنح ، قبل أن يقول :

ـ ولكن هذا لا يمنع من وجود نقطتى غموض ، لايمكننا إيجاد أى تفسير لهما .

سأله (عزت) فى حيرة :

ـ وما هما ؟!

تحرك (حسن) فى الحجرة ، مجيبًا :

ـ الصندوق الأسود لطائرتك يؤكِّد إلى حد ما قصتك .

ردَّ (عزت) فى دهشة :

ـ إلى حد ما ؟!

أومأ (حسن) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالطبع ، ففى قصتك ، حدث اختراق ذلك الكيهان البرتقالى الهلامى ، الذى مازلنا نجهل ماهيته ، فى لحظة واحدة ،

ولكن بيانات الصندوق الأسود تقول : إنك قد قضيت داخله مايقرب من نصف الساعة .

انتفض جسد (عزت) فى عنف ، وهو يهتف :

ـ نصف الساعة ؟! مستحيل !

واصل (حسن) فى اهتمام ، وهو يحاول أن يستشف انفعالاته :

ـ الصندوق الأسود سجَّل الاختراق ، ثم سجَّل صمتًا عجيبًا ، طوال نصف ساعة كاملة ، وبعدها سجَّل ماتلقيته ، فور خروجك من ذلك الشىء .

اتسعت عينا (حسن) وهو يتمتم :

ـ نصف الساعة ؟! يا إلهى ! .

شعر (حسن) بما يعانيه صديق عمره ، فمال نحوه ، وربَّت على كتفه فى رفق :

ـ حاول أن تتذكَّر يا (عزت) .. حاول أن تعتصر ذاكرتك أكثر ، لتخبرنا ماذا حدث ، خلال نصف الساعة تلك ؟!

بدا (عزت) مأخوذًا مذعورًا ، وهو يردِّد :

ـ مستحيل ! لا يمكن أن ..

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وخفق قلبه فى عنف ..

نعم .. إنه يذكر شيئًا ..

بل أشياء ..

أشياء متخبطة ، متداخلة ، مشوّشة ..

الدم .. النيران .. الدخان الأحمر .. و ...

وتلك الأشياء ..

أشياء بشعة الخلقة ، رهيبة ، مخيفة ، ترقد داخل .. داخل كبسولات من مادة هلامية عجيبة ..

ثم تلك الـ ....

لا .. يمكنه أن يسترجع ذلك الجزء من ذاكرته ..

لا ...

« لا .. »

انطلقت الصرخة من حلقه قوية ، والعرق ينهمر على

وجهه وجسده كالمطر ، واتسعت عيناه فى ارتياع مذعور ، وخوف بلا حدود ، فهتف به (حسن) فى جزع :

ـ ماذا حدث ؟! ماذا حدث يا صديقى ؟!

هبَّ (عزت) من مقعده ، هاتفًا :

ـ إنهم .. إنهم هنا .

سأله (حسن) ، وقد اختلطت حيرته بذلك الخوف المبهم :

ـ من يا (عزت) ؟! من هم ؟!

اتسعت عينا (عزت) فى رعب أكثر ، وارتفعت يداه فى حركة عنيفة مباغتة ؛ لتكتما أذنيه ، وهو يصرخ :

ـ لا .. لا أريد أن أسمع ذلك النداء مرة أخرى .

تضاعف خوف (حسن) وحيرته ، وهو يمسك كتفيه ، هاتفًا :

ـ أى نداء يا (عزت) ؟! أى نداء ؟!

صرخ (عزت) ، وهو يضغط أذنيه أكثر وأكثر :

ـ لا .. لا أريد أن أذهب إليهم .. لا أريد .

صرخ (حسن) بدوره :

ـ من هم يا (عزت) ؟! من هم ؟!

اندفع طبيب المطار إلى الحجرة ، فى هذه اللحظة ، فالتفت إليه (حسن) فى حدة ، هاتفًا :

ـ ماذا ستفعل ؟!

أشار الطبيب بالمحقن الذى يحمله ، مجيبًا :

ـ اطمئن .. إنه مجردّ مهدئ ؛ حتى لا يتكرَّر ما حدث ظهر اليوم .

وقبل حتى أن يكمل حديثه هذا ، كان قد كشف ذراع (عزت) ، وغرس فيه إبرة المحقن ..

وضغط (عزت) أذنيه أكثر وأكثر ..

كان يحاول كتمان ذلك النداء بكل قوته ..

ولكن هيهات ..

النداء كان يتردَّد فى كل ذرة من كيانه صاخبًا مدويًا ..

هذا لأنه لا يأتيه من مصدر خارجه ..

إنه ينطلق من أعماقه ..

من أعمق أعماقه ..

ولكن ذلك العقار ، الذى حقنه به الطبيب ، جعل النداء يخفت ..

ويخفت ..

ويخفت ..

أخيرًا بدأ يشعر بالارتياح ، والهدوء ، والاسترخاء ..

ومرة أخرى ، ولكن بصوت أكثر رفقًا ، سأله (حسن) :

ـ أى نداء هذا الذى تتحدَّث عنه يا (عزت) ؟! ومن هؤلاء ؟!

تطلَّع إليه (عزت) بعينين نصف مغلقتين ، وتمتم :

ـ أما زال والدىَّ على قيد الحياة ؟!

اندهش (حسن) للسؤال ، الذى أتى جوابًا لسؤاله ، وغمغم فى حيرة :

ـ نعم .. ما زالا على قيد الحياة ، وسنبلغهما أمر عودتك بالطبع ، و ...

قاطعه (عزت) ، وهو يمسك يده بغتة :

ـ كلاً .. لاتفعل .

تضاعفت دهشة (حسن) وهو يغمغم :

ـ لا أفعل ؟! ألا تريد أن تبلغ والديك أمر عودتك ؟!

ارتجفت ابتسامة متهالكة على شفتى (عزت) ، وهو يقول :

ـ لقد حزنا طويلاً لغيابى ، ولاينبغى أن يحزنا مرة أخرى .

تراجع (حسن) بدهشة حادة ، وهو يقول :

ـ يحزنا ؟! وهل يمكن أن تحزنهما عودتك ؟!

هزَّ (عزت) رأسه ، وجفناه يلتقيان فـى تهـالك ، وهـو يجيب :

ـ بل سيمزقهما اختفائى مرة أخرى يا صديقى .

سرت قشعريرة باردة مؤلمة فى جسد (حسن) ، وهـو يهتف :

ـ اختفاؤك مرة أخرى ؟! ماذا تعنى بالله عليك ؟!

ولم يجب (عزت) هذه المرة ..

فقط أغلق عينيه ، وترك نفسه يغرق فى سبات عميق ، تاركًا (حسن) خلفه ، مع طن من الدهشة والحيرة ..

بل أطنان .

* * *

٦ ـ لماذا ؟!

« مستحيل !! » .

تسلّلت الكلمة مع كل انفعالاتها ، من بين شفتى (حسن) ، وهو يطالع ذلك الفيلم ، الذى تم التقاطه للشق الضخم ، وغمغم :

ـ رباه ! ماذا يحدث بالضبط ؟! (عزت) عند الظهر ، ثم هذا الشىء الرهيب ؟! ماذا ينتظرنا ؟!

أشار إليه المدير ، قائلاً :

ـ الأمران مازالا طى الكتمان والسرية التامة يا (حسن) ، والسيد الرئيس اقترح بحث احتمال ارتباطهما ببعضهما ، على نحو ما .. وهو احتمال منطقى ومعقول ، لو طبقنا قاعدتنا الذهبية ، فى عدم الإيمان بتوافق المصادفات .

وصمت لحظة ، قبل أن يتابع فى توتر :

ـ المشكلة أننا نفتقر تمامًا إلى المعلومات فى الحالتين ،

مما يعجزنا حتى عن إيجاد الرابطة بينهما .. كل ما نعلمه هو أن الشق مازال يواصل اتساعه ، ومازال الكل يرددون أمر ذلك النداء الغامض ، الذى تحدَّث عنه المهندس ، الذى ابتلعه الشقّ و ...

قاطعه (حسن) ، وجسده ينتفض انفعالاً :

ـ أى نداء ؟!

روى له المدير تفاصيل ما أورده الرائد (يحيى) فى تقريره ، فاتسعت عينا (حسن) عن آخرهما ، وهو يهتف :

ـ رباه ! هذه هى الرابطة بين الحدثين إذن يا سيادة المدير ..

لم يكن قد روى لمديره ، ما ردَّده (عزت) ، قبل أن يغرق فى سباته ، فراح يشرح ما حدث بأدق التفاصيل ، وشاركه عندئذ مديره فى انفعاله ، وهو يقول :

ـ النداء هو الرابطة بين الحدثين إذن .. لقد كان سيادة الرئيس على حق .. الحدثان وقعا معًا ، أو أن أحدهما كان السبب فى حدوث الآخر ، إما أن الشق قد جلب (عزت) إلى عالمنا ، أو أن اختراقه لحاجز الزمن ، هو الذى صنع ذلك الاضطراب ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة وتوتر ، فسأله (حسن) فى حذر شديد القلق :

ماذا هناك ؟!

تطلّع إليه المدير لحظة فى صمت ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ لو أن هذا الاحتمال صحيح ، فسيعنى هذا أنه سيتعيَّن علينا القيام بإجراء يمليه علينا ضميرنا وعملنا .

تسلَّل الخوف إلى قلب (حسن) ، وهو يسأل :

ـ وما هو ؟!

شدّ المدير قامته ، وهو يجيب :

ـ التخلُّص من مسبِّب الكارثة .

اتسعت عينا (حسن) فى ارتياع ، قبل حتى أن يكمل المدير:

ـ من (عزت شاهين).

وهوى قلب (حسن) بين قدميه ..

كالصخر ..

★ ★ ★

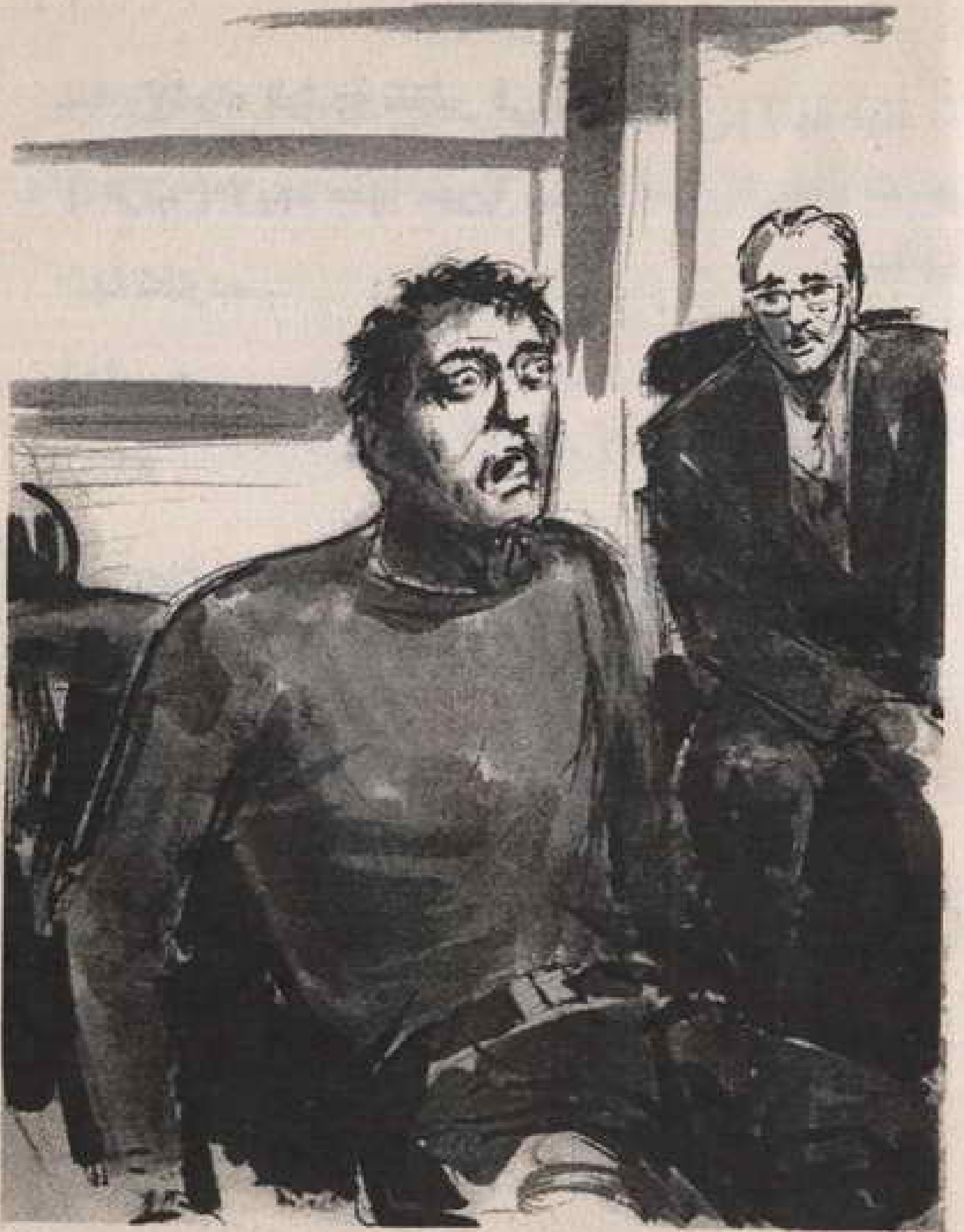

قاطعه (حسن) وجسده ينتفض انفعالاً :

ـ أى نداء ؟! ..

تلك الأشياء البشعة تنتشر فى كل مكان ..

(عزت) لايجد منها مهربًا ..

إنها تطارده ..

تحاصره ..

تخنقه ..

كل شىء من حوله اصطبغ بذلك اللون البرتقالى ..

وكان من الضرورى أن يهرب ..

أن يفرّ من ذلك المصير البشع ..

ولكن تلك الأشياء انقضت عليه من كل صوب ..

وها هى ذى تقيد حركته ، وتحبس أنفاسه فى صدره ، فيختنق ..

ويختنق ..

ويختنق ..

و ...

هبَّ من رقاده فى عنف ، وهو يلهث بشدة ، هاتفًا :

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

انتبه فجأة إلى شخص يجلس على مقربة من فراشه ، فى صمت وجمود ، فسرت فى جسده قشعريرة سريعة وهو يهتف :

ـ من أنت ؟!

أتاه صوت صديقه (حسن) ، يقول :

ـ إنه أنا .

وامتدت يده تضغط زر الإضاءة ، وهو يضيف بابتسامة باهتة :

ـ هل نمت جيدًا ؟!

اعتدل (عزت) جالسًا على طرف فراشه ، وهو يغمغم :

ـ أظننى نمت لساعة أو يزيد .

أجابه (حسن) :

ـ ثلاث ساعات وست عشرة دقيقة بالضبط .

تمتم (عزت) :

ـ أظننى كنت بحاجة إلى هذا .

غمغم (حسن) بدوره :

ـ بالتأكيد .

ران عليهما الصمت ، لما يقرب من دقيقة كاملة ، وكلاهما يتطلَّع إلى الآخر ، قبل أن يتساءل (عزت) بغتة :

ـ ما الأمر الثانى ؟!

تطلَّع إليه (حسن) فى دهشة ، فتابع :

ـ قلت لى إنه مازال هناك أمران غامضان ، أحدهما تلك الفجوة التى سجلها الصندوق الأسود ، فما الأمر الثانى ؟!

قلب (حسن) شفتيه لحظة ، ثم لم يلبث أن مال نحوه ، متسائلاً :

ـ أين ذهبت ذخيرة الطائرة ؟!

التقى حاجبا (عزت) ، وهو يقول :

ـ المفترض أن يتبقى صاروخ واحد ، ومائة رصاصة على الأقل .

هزَّ (حسن) رأسه ، قائلاً :

ـ لم يكن بها صاروخ واحد ، أو رصاصة واحدة .

ازداد التقاء حاجبى (عزت) وهو يغمغم :

ـ يا إلهى !

ثم نهض من مكانه ، واتجه نحو النافذة ، التى أضيفت إليها شبكة من الصلب ، وتطلَّع عبرها متسائلاً :

ـ أما زلنا فى مطار ألماظة ؟!

أجابه (حسن) فى اقتضاب :

ـ بلى .

تنهَّد (عزت) ، ولاذ بالصمت بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول :

هل تعلم ما الذى يعنيه اختفاء الذخيرة ؟!

سأله (حسن) فى اهتمام :

ـ يهمنى أن أعلم .

استدار إليه (عزت) ، مجيبًا بصوت مرتجف :

ـ يعنى أنهم يدرسون أسلحتنا .

حدَّق (حسن) فى وجهه بدهشة عارمة ، قبل أن ينهض من مقعده بحركة حادة ، ويتجه نحوه ، متسائلاً فى عصبية :

ـ من هم يا (عزت) ؟! من هؤلاء الذين تتحدث عنهم طوال الوقت ؟!

تطلَّع إليه (عزت) فى تردُّد وتوتر ، وبدا لحظة أنه سيفرغ كل ما بجعبته ، إلا أنه لم يلبث أن هزَّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ لا .. لن يمكنك أن تستوعب هذا .

قال (حسن) فى توتر :

ـ مادمت تستطيع استيعابه ، فماذا يمنعنى من هذا ؟!

قلب (عزت) كفيه ، قائلاً :

ـ لست أدرى .. لست أدرى حتى كيف أمكننى أنا استيعابه ؟! ربما لأننى رأيت ما لم تره أنت ، ومررت بما لم تمرّ به .

أمسك (حسن) كتفيه ، وهو يقول بتوتر زائد :

ـ صف لى ما رأيته .

هتف (عزت) فى مرارة :

ـ ليتنى أستطيع .

ثم أخفى وجهه بكفيه ، مستطردًا بلهجة أشبه بالبكاء :

ـ إننى عاجز حتى عن إيجاد الكلمات المناسبة .. لست أدرى كيف يمكننى أن أصف ما شاهدته .. لست أدرى .

حدَّق (حسن) فى وجهه ، قائلاً :

ـ ألم تقل : إنك قد شاهدت ما يشبه المخ البشرى ؟!

هتف (عزت) :

ـ فى البداية فحسب .

سأله (حسن) فى عنف ، وكأنما يستحثه على الكلام :

ـ ثم ماذا ؟!

كانت عينا (عزت) محمرتين بشدة ، عندما رفعهما إليه ، وكانتا تحملان مزيجًا من الألم ، والحزن ، والخوف ، والرهبة ، والذعر ، انتقل كله إلى لسانه ، عندما قال ، بلهجة أقرب إلى الضراعة :

ـ أرجوك يا (حسن) .. أرجوك .. لا توقظ ذلك الوحش الرابط فى أعماق مخى .. أرجوك .

تراجع (حسن) ، قائلاً فى حدة :

- ولكن من الضرورى أن أعرف .. إنه واجبى .

عضَّ شفتيه فى ألم ومرارة ، وهو يحاول تنظيم أفكاره ، وإزاحة حزن الدنيا كله عن كاهله ، قبل أن يهتف :

- إنك لاتدرك مدى أهمية أن نعرف ما لديك .. لاتدرك أننا نواجه خطرًا رهيبًا .. خطرًا بمثابة ..

قاطعه (عزت) فى حزن رهيب :

- شق فى أرض (مصر) ، يتسع فى سرعة ، حتى يكاد يلتهمها عن آخرها .

استدار إليه (حسن) بحركة أشبه بالإعصار ، وهو يهتف ذاهلاً :

- كيف عرفت ؟!

هزَّ (عزت) رأسه فى انهيار ، وهو يغمغم :

- صدقنى .. أنا أتمنى معرفة جواب السؤال نفسه .

ثم رفع عينيه الدامعتين إلى (حسن) مستطردًا :

- أريد أن أعرف كيف عرفت ؟! كيف ؟! هل زرعوا كل هذا فى عقلى ، أم ...

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وبدا وكأنه يحدِّق فى كيان مبهم خفى ، قبل أن يصرخ :

- يا إلهى ! إنهم يتحركون أسرع مما ينبغى .. ذلك الشق سيلتهم كل شىء فى غضون ساعات قليلة .

واستدار بجسده كله ، يشير إلى النافذة مستطردًا :

- قبيل الفجر .

وانتفض جسد (حسن) كله فى عنف :

وحدَّق بدوره فى النافذة ، وعقله يكرِّر فى أعماقه تلك الكلمات بلا انقطاع ..

النهاية آتية لاريب ..

قبل الفجر .

* * *

٧ـ الأشياء..

حلَّ الدكتور (جمال) رباط عنقه ، فى توتر شديد ، وهو يطالع تقارير الفحص الأخيرة ، ومسح عرقًا غزيرًا عن جبهته ووجهه ، وهو يقول :

ـ النشاط يتزايد على نحو مخيف .

غمغم الضابط المسئول عن العملية ، وهو يتطلَّع إلى الشق الرهيب ، فى قلق بالغ :

ـ والشق يزداد اتساعًا أيضًا .

زفر الدكتور (جمال) مغمغمًا :

ـ بأسرع مما كنا نتوقَّع بكثير .

التفت إليه الضابط ، وسأله فى توتر :

ـ ألم يمكنكم جمع معلومات كافية عن الموقف ؟! ألم تتوصَّلوا بعد لمعرفة ماذا يحدث داخله ؟! أحمم هى تلك التى تسطع هكذا أم ماذا ؟!

هزَّ الدكتور (جمال) رأسه ، فى حيرة عصبية ، وهو يجيب :

ـ لا توجد أية حمم بالداخل ، على الرغم من كل الوهج البرتقالى الذى تراه ، والأدخنة الحمراء المتصاعدة ، بل إننا لا نجد حتى سببًا لوجودهما ، فطبقًا لما أجريناه من فحوص ، وباستخدام أحدث ما توفر لنا من أجهزة ، يفترض أن هذا الشق مدخل إلى فراغ ضخم للغاية ، وعميق بلا حدود .

هتف الضابط مستنكرًا :

ـ فراغ ؟! ويفترض هذا ؟! ماذا دهاكم يا رجال العلم ؟! ألا ينبغى أن تكون مصطلحاتكم وعباراتكم دقيقة واضحة دومًا ؟!

أجابه الدكتور (جمال) :

ـ بلى ، ولكن هذا عندما يتعلَّق الأمر بما يمكننا فهمه أو استيعابه ، ولكننا أمام ظاهرة مذهلة ، لم يمض على حدوثها بضع ساعات ، وتتفاقم بسرعة مخيفة ، لا تمنحنا حتى فرصة دراستها واستيعاب معطياتها الجديدة .

هتف الضابط :

ـ ولكن لا بد من إيقاف ما يحدث بأية وسيلة .

قال الدكتور (جمال) فى حدة :

ـ ألديك ما تنصحنا به ؟!

صاح الضابط :

ـ أنتم العلماء .

قلب الدكتور (جمال) كفيه ، هاتفًا فى يأس ومرارة :

ـ ولقد فعلنا كل ما بوسعنا ، وعجزنا عن إيجاد حل .

بلغت عصبية الضابط مداها ، وهو يهتف :

ـ ماذا تعنى ؟! هلى سنقف جميعًا صامتين ، حتى يبتلعنا هذا الشيء الجهنمى بلا رحمة .

صمت الدكتور (جمال) لحظة ، وهو يطيل النظر فى الشقّ ، قبل أن يهز رأسه فى بطء ، مجيبًا :

ـ هناك حل ما حتمًا .. حل يكمن فى مكان ما ، أو ...

توقّف بضع لحظات ، قبل أن يضيف ، بصوت حمل كل توتر الدنيا :

ـ أو فى عقل ما .

ربما لم يكن يقصد هذا المعنى حرفيًا ..

ولكن عبارته كانت صادقة ودقيقة ..

إلى أقصى حد ..

* * *

لخمسِ دقائق كاملة ، لم ينبس (عزت) ببنت شفة ، وهو يتطلّع فى حزن ثقيل عجيب ، إلى طائرته الرابضة على أرض مطار (الماظة) ..

وفى أعماقه ، كـان هناك بركـان ثـائر ، يفيض بحمم من ذكريات بغيضة ، ومرارة رهيبة ، وخوف مبهم عجيب ..

تجربته ، التى استغرقت فى عالمه عشرين عامًا كاملة ، والتى سجّلها الصندوق الأسود لطائرتـه كنصـف سـاعة كاملة ، كانت بالنسبة إليه هو مجرّد لحظات ..

فكيف تركت فى كيانه كل هـذه الذكـريات والمعلومـات والمخاوف إذن ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

إنه يعرف كل ما يحدث الآن فى وطنه ..

فى عالمه ..

فى كوكبه ..

يعرف كل ما يحدث وكأنه يراه ..

أو رآه ..

بل ويعرف حتى ما سيحدث ، خلال السـاعات القليلـة القادمة ..

يعـرف ذلك المصير البشـع ، الـذى أعدّته تلك الأشـياء للأرض ..

المصير المخيف الرهيب ، الذى سيبتلع عالمًا بأكمله ..

إنه شىء لم يعرفه ، أو حتى يتخيّله ، فى عمره كله ..

شىء يعجز حتى عن وصفه ..

فتلك الأشياء ليست بشرًا ..

أو أية مخلوقات عادية ..

إنها أشياء رهيبة ..

رهيبة ..

رهيبة ..

والمصير القادم أيضًا رهيب ..

وإلى أقصى حد ..

وبكل مرارة الدنيا ، عضّ شفتيه ، حتى كاد يدميهما ..

وفى أعماقه تردّدت صرخة بائسة يائسة ..

لمـاذا ؟!

لماذا عاد ، فى هذا التوقيت بالذات ؟!

لماذا كُتِبَ له أن يخوض هذه التجربة الرهيبة ؟!

لماذا عاد ليشهد تلك النهايةَ البشعة لعالمه ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

وفجأة ، قفز إلى ذهنه خاطر مخيف ..

مخيف إلى أقصى حد ..

خاطر جعل وجهه يمتقع بشدة ، وعينيه تبلغان أقصى اتساعهما ، فى ارتياع بلا حدود ، جعل (حسن) يهتف :

- ماذا أصابك ؟!

حدَّق (عزت) فى وجهه ، وكأنما ينتبه إلى وجوده لأوَّل مرة ، وهو يردِّد فى رعب عجيب :

- يا إلهى ! يا إلهى !

أمسك (حسن) كتفيه فى قوة ، وهو يكرِّر :

- ماذا أصابك ؟!

اتسعت عينا (عزت) مرة أخرى فى ارتياع ، وهو يقول :

- إنه أنا .

سأله (حسن) فى قلق :

- أنت ماذا ؟!

خفض (عزت) عينيه ، وهو يجيب بصوت أقرب إلى البكاء :

- أنا المسئول عن كل هذا .

جاء دور (حسن) ، ليبلغ اتساع عينيه أقصاه ، وهو يصرخ :

- أنت ؟! ماذا تعنى ؟!

هزَّ (عزت) رأسه فى قوة ، هاتفًا بكل مرارة :

- لايمكن أن يكون الأمر مجردٌ مصادفة .. لايمكن أن ترتبط عودتى بحدوث هذا ، إلا لو كانت هناك رابطة قوية بين الأمرين .

قال (حسن) فى حذر :

- هذه نظريتنا أيضًا .

انقلبت الأدوار بينهما ، وأمسك (عزت) كتفى (حسن) هذه المرة ، وهو يهتف فى انفعال :

ـ لو أعدت دراسة الأمر ، فستجد أن عودتى ، واختراقى لكل قوانين الزمن والفيزياء وطبيعة الكون ، هى التى حفزت تلك الأشياء على بدء لعبة الإبادة هذه .

ردَّد (حسن) ، فى صوت يحمل رنة جزع :

ـ الإبادة ؟!

هتف (عزت) :

ـ نعم .. هذا ما يسعون إليه .. هذا ما جاءوا من أجله .. الإبادة الشاملة .. إبادة الجنس البشرى من الوجود .

قال (حسن) ، وقد احتبس صوته فى حلقه ، من شدة الانفعال :

ـ ولكن لماذا ؟!

أجابه (عزت) بانفعال أكثر :

ـ لأن هذا هو الشىء الوحيد الذى يجيدونه .. إنهم يجوبون

الكون كله ، منذ ملايين السنين ، لإبادة كل حضارة يمرون بها .. إنهم ليسوا مخلوقات عادية ياصديقى .. إنهم الشر .. الشر نفسه مجسَّمًا .

ردَّد (حسن) خلفه ، فى انبهار مذعور :

ـ الشر ؟!

ثم تراجع بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ أى قول هذا يا (عزت) ؟! إنها ليست واحدة من مسرحيات (شكسبير)(*) ، المفعمة بالرموز والأساطير .. ليست حلمًا آخر ، من أحلام ليالى الصيف .. إنه عالم الواقع يا رجل .. العالم الذى لا يوجد فيه تجسيد صاف ، لأية صفة فى الوجود .

(*) وليام شكسبير (١٥٦٤ ــ ١٦١٦م) : أعظم الشعراء وكتاب المسرح الإنجليز ، وله الفضل فى أن يحتلّ الفن المسرحى مكانته المرموقة .. لم يتم تحديد هويته بالضبط ، ولكنه أنتج خلال حياته عددًا من المسرحيات ، التى ما زالت تحظى بشهرة لا محدودة ، ويتكرّر إنتاجها مسرحيًا وسينمائيًا ، كل عقد من الزمن على الأقل ، ومن أشهر مسرحياته (هاملت) و(عطيل) و(ماكبث) ، و(حلم ليلة صيف) ..

زفر (عزت) ، على نحو خُيِّل لـ (حسن) معه ، أن النيران قد انطلقت من حلقه كالتنين ، قبل أن يقول :

ـ اطرح كل الفلسفات جانبًا ، وصدقنى .. هؤلاء هم الشر الخالص المجسَّم .

انعقد حاجبا (حسن) فى شدة ، وتراجع بضع خطوات ، وكأنما يلقى نظرة شاملة كاملة على صديق عمره ، قبل أن يعتدل فى وقفته ، ويشدّ قامته ، قائلاً فى حزم :

ـ ربما .

تطلَّع إليه (عزت) ، فى صمت واستسلام ، ولكنه استدرك بكل صرامة :

ـ ربما كان ما تقوله صحيحًا .. ربما كانت عودتك سببًا فى تنشيط تلك الأشياء .. ربما .. إنه مجرَّد افتراض ، يفسِّر ارتباط الحدثين ببعضهما ، ولكن هناك افتراضًا عكسيًّا أيضًا ، ألا وهو أن استعادتها لنشاطها ، هو الذى حرَّرك من السجن الزمنى ، الذى قضيت فيه نصف ساعة مجهولة ، وأعادك إلينا .

خفق قلب (عزت) ، مع هذا الافتراض الجديد ، وهتف :

ـ هل تعتقد هذا ؟!

أجابه (حسن) فى حزم :

ـ كل شىء مجرَّد افتراض .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ فيما عدا أنك هنا الآن .

زفر (عزت) مرة أخرى ، وعاد يخفض عينيه ، متمتمًا :

ـ السؤال هو لماذا ؟! لماذا أنا هنا ؟!

تطلَّع إليه (حسن) لحظة فى صمت مشفق ، ثم لم يلبث أن اتجه نحوه ، وربَّت على كتفه ، مغمغمًا :

ـ رئيسى يؤمن بأنك هنا لسبب ما .. سبب لا يعلمه إلا اللّه (سبحانه وتعالى) .

ارتجفت شفتا (عزت) فى تأثُّر ، وعاد يرفع عينيه إلى (حسن) ، متسائلاً فى حزن عميق :

ـ سبب مثل ماذا ؟!

حاول (حسن) أن يبتسم ، وهو يقول :

- من يدرى ؟!

هزَّ (عزت) رأسه ، مغمغمًا :

- نعم .. من يدرى ؟

وتنهَّد فى عمق ، قبل أن يضيف :

- ولكن لن يمكنك أن تتصورَّ كم يخيفنى أن يتردَّد ذلك النداء مرة أخرى .. كم أخشى قدومه التالى ، وذلك التمزُّق الذى أشعر به ، فى كل ذرة من كيانى .

ثم شهق على نحو مباغت ، وهتف :

- إنهم لايريدون أن أبقى على قيد الحياة .. إنهم يسعون لتدميرى بأى ثمن .

انعقد حاجبا (حسن) ، وهو يقول :

- هنا ينبغى أن نسأل .. لماذا ؟!

أطلت دهشة حائرة متسائلة من عينى (عزت) ، فتابع (حسن) فى حزم شديد التركيز :

- أصدقك القول ، أن أحد أسباب استمرار احتجازك هنا ، هو احتمال جال بخاطرنا ، أن يكون سبب وجودك ، وتوافق عودتك مع ظهور الشق ، الذى تصنعه تلك الأشياء ، هو أنك عين لهم على الأرض ، ولكن قولك بأنهم يسعون للقضاء عليك فجَّر احتمالاً آخر ، وسؤالاً آخر .

وتطلَّع إلى عينى (عزت) مباشرة ، وهو يكمل بمنتهى الصرامة :

- ربما كنت تعرف وسيلة القضاء عليهم .

هوت العبارة على (عزت) كالصاعقة ، فتراجع بحركة حادة ، هاتفًا :

- أنا ؟!

قال (حسن) فى سرعة :

- نعم .. أنت .. أنت المخلوق الحى الوحيد فى عالمنا ، الذى اخترق كيانهم يومًا ، وخرج منه حيًّا .. ربما لأن الطائرة ، التى كنت داخلها ، هى التى حمت جسدك منهم .. ليس هذا فحسب ، ولكنها منحتك فرصة أن ترى ... وتدرك .. وتفهم ، وتعرف مدى قوتهم وخطورتهم ..

ثم مال نحوه ، مضيفًا بلهجة حازمة للغاية :

- وتعرف نقاط ضعفهم أيضًا .

اتسعت عينا (عزت) ، وهو يتراجع ويتراجع ، وتفجَّر فى ذاكرته بركان من الرءوس والأحداث والذكريات ..

نعم .. لقد استغرق طويلاً ، داخل ذلك الكيان البرتقالى الرهيب ..

استغرق أكثر مما استوعبته ذاكرته فى البداية ..

أكثر بكثير ..

استغرق ما كان يكفيه ليرى ..

ويدرك ..

ويفهم ..

وكما لو أن (حسن) قد ضغط زرًا خفيًا ، فى أعمق أعمق تلافيف مخه ، تحررَّت كل ذكرياته دفعة واحدة ، وانهمرت فى مخه كالسيل ..

ومع تدفُّق الذكريات ، راح جسده ينتفض فى عنف ..

وينتفض ..

وينتفض ..

ثم اتسعت عيناه ، على نحو لم يحدث فى عمره كله قط .. وانطلقت من كيانه ، وعبر حلقه ، شهقة قوية ..

نعم .. الآن يتذكَّر كل شىء ..

ويعرف كل شىء ..

يعرف أن الأمر أكثر خطورة وبشاعة مما كان يتصوَّر .. أكثر ألف مرة .

* * *

٨ ـ القرار ..

ارتجّت الأرض مرة أخرى بعنف ، فى تلك المنطقة الجبلية ، فى جنوب (مصر) ، وانهارت مع الارتجاج مجموعة صخور جبلية أخرى ، وابتلعها الشق المتسع دون صوت ، وكأنما ذابت فى أعماقه ، أو تفتتت إلى قطع صغيرة ، مع دخانه الأحمر الرهيب ، الذى يتألّق بذلك الضوء البرتقالى ، المنبعث من أعماق الشق ، ليصنع صورة أشبه بالجحيم ، جعلت الضابط المسئول يهتف :

ـ سيرسلون فريقًا أكثر تطورًا .

زفر الدكتور (جمال) ، مغمغمًا :

ـ لن يكون هناك وقت لهذا .

تجاهل الضابط العبارة ، وهو يواصل :

ـ فريق من رجال الصاعقة سيجازف بالغوص فى الشق ، لجمع كل المعلومات الممكنة عن أعماقه ، و ...

قاطعه الدكتور (جمال) هذه المرة ، هاتفًا فى ارتياع :

ـ بالغوص فى ماذا ؟! ألا تفهم ما يحدث هنا يا رجل ؟! ذلك الشق أشبه بحفرة من حفر النار ، تلتهم ، وبلا رحمة ، كل من يقترب منها ، فما بالك بمن يغوص فيها .

قال الضابط ، فى صرامة شديدة :

ـ لابد أن نعرف .

هتف الدكتور (جمال) :

ـ ألا توجد وسيلة لذلك ، سوى التضحية بفريق من خيرة شبابنا ؟!

صاح الضابط :

ـ إنهم جنود ، ومهمتهم حماية هذا الوطن ، والدفاع عنه ، مهما كان الثمن .. هل تفهم أيها الجيولوجى ؟! مهما كان الثمن .

تراجع الدكتور (جمال) ، أمام هذه الثورة العارمة ، وازدرد لعابه فى صعوبة ، وهو يغمغم :

ـ ولكن ما سيفعلونه هو نوع من الانتحار .

صمت الضابط بضع لحظات ، وارتجفت شفتاه ، وكأنما يحاول السيطرة على انفعالاته ، قبل أن يقول فى حزم :

- وهم انتحاريون .

وازدرد لعابه ، قبل أن يضيف بحزم أكبر :

- وهذا واجبهم .

لم يكد يتمّ كلمته ، حتى سمعا أزير الهليوكوبتر الحربية ، التى حجبها الظلام المحيط بالمنطقة ، والتى لم تلبث أن ظهرت فجأة ، وهى تعبر فوق رأسيهما ، ورءوس المحيطين بالمكان متجهة نحو الشق مباشرة ، والذى يبعد عن الجميع مائتى متر تقريبًا ..

وبحركة ماهرة سريعة ، انخفضت الهليكوبتر ، وخفَّفت من سرعتها على نحو ملحوظ ، ودون أن تتوقَّف ، راح رجال الصاعقة يثبون منها إلى الأرض ، بكامل عدتهم وأسلحتهم ، وانتشروا يحيطون بالشق فى سرعة ، على نحو يوحى بأنهم يعرفون مهمتهم جيِّدًا ، وتدرَّبوا عليها طويلاً ..

وما إن اكتمل عددهم ، حتى ارتفعت الهليكوبتر مرة أخرى ، واستعادت سرعتها ، وراحت تدور حول المكان ، وكأنما يراقب من بداخلها الأحداث ..

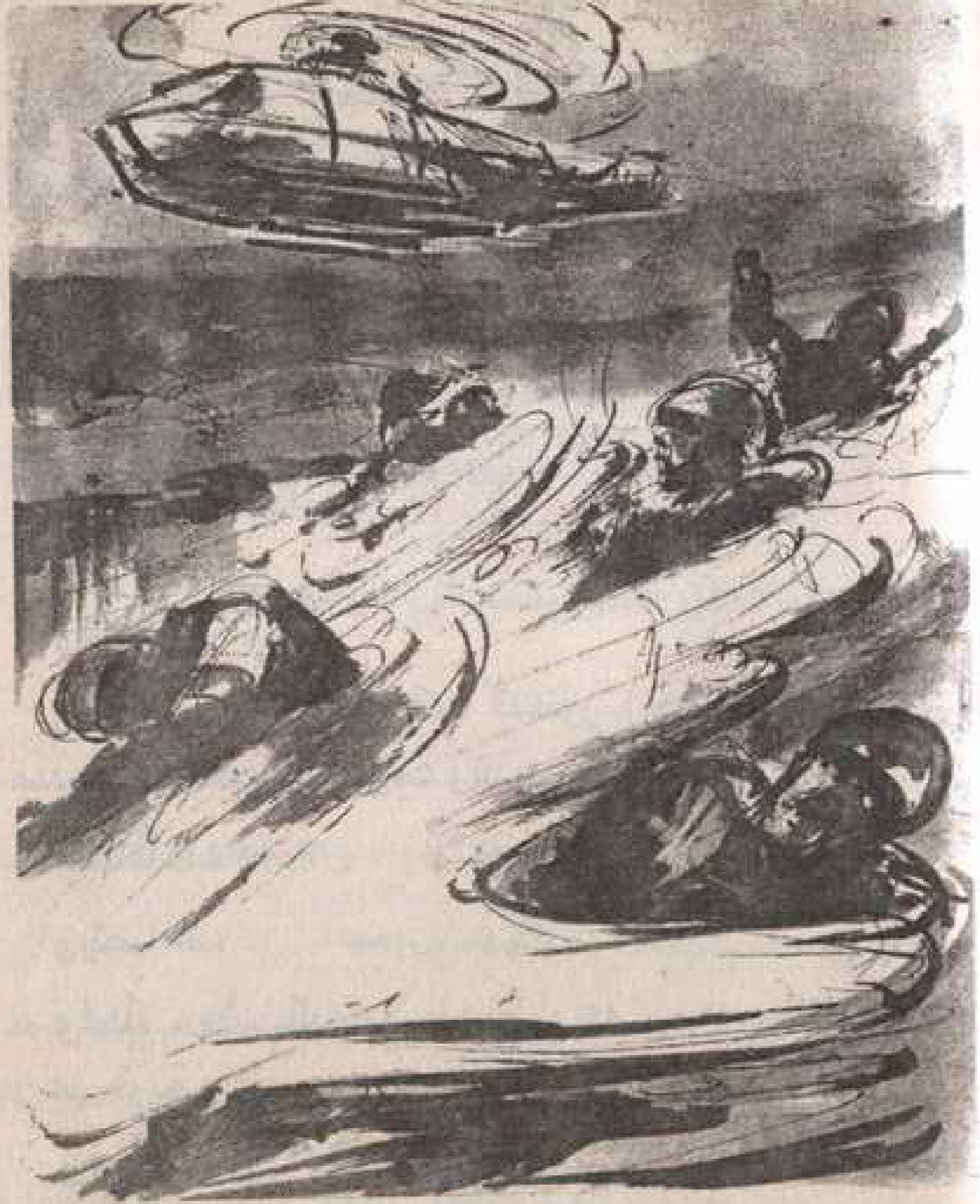

وبحركة ماهرة سريعة ، انخفضت الهليوكوبتر ، وخفَّفت من سرعتها على نحو ملحوظ ، ودون أن تتوقف ، راح رجال الصاعقة يثبون منها إلى الأرض ، بكامل عدتهم وأسلحتهم وانتشروا يحيطون بالشق فى سرعة ..

وحبس الدكتور (جمال) أنفاسه ، وهو يراقب ما يحدث فى انبهار متوتر ..

وبدون كلمة واحدة ، وبإشارات سريعة حازمة أحاط رجال الصاعقة بالشقَ ، ثم اتجهوا نحوه فى حزم وصلابة ، يوحيان بقلوب صلبة باسلة ، لا تعرف للخوف سبيلاً ..

وبكل القوة ، راحوا يقتربون ..

ويقتربون ..

ويقتربون ..

ومع كل خطوة ، كان قلب الدكتور (جمال) ينتفض فى صدره ، وشعوره بالخوف والذعر يتضاعف ..

ويتضاعف ..

ويتضاعف ..

وفجأة ، وثب قلبه من بين ضلوعه ، وهو يطلق صرخة رعب قوية ..

فبلا مقدمات ، وبحركة مباغتة رهيبة ، انقسم الدخان الدموى إلى عشرات الأجسام ، الشبيهة بأذرع الأخطبوط ، التفَ كل منها حول أحد رجال الصاعقة البواسل ، فى سرعة مذهلة ، وجذبه إلى الشق ..

إلى قلب الجحيم البرتقالى الرهيب ..

وانطلقت من حلوق الرجال صرخة دهشة وانزعاج ..

صرخة استغرقت ثوانى معدودة ..

ثم تلاشت هناك ..

فى أعماق الشق ..

ومع تلاشيها ، ارتجَت الأرض كلها مرة أخرى ..

ثم انطلق الشق يتسع فى سرعة رهيبة ..

ويتسع ..

ويتسع ..

وصرخ الدكتور (جمال) ، وهو يعدو بأقصى سرعته :

ـ سيلتهمنا .. سيلتهمنا جميعًا .

انطلق الجميع يعدون ، واتساع الشق يطاردهم كألف ألف شيطان ، وبسرعة تتجاوز قوتهم مرتين على الأقل ..

ومن خلفه ، سمع الدكتور (جمال) صرخات الرجال ، الذين راح الشق يلتهمهم بلا رحمة أو هوادة ، فزادت سرعة عدوه ، حتى لقد خُيِّل إليه أنه يعدو بأسرع من قدرات البشر بالفعل ..

ويبدو أن هذا كان صحيحًا ؛ لأن قلبه كان يخفق على نحو مخيف رهيب ..

وأخيرًا ، عجز جسده البشرى عن الاحتمال والمواصلة .

فسقط ..

هوى على وجهه ، وهو يصرخ :

ـ إنها النهاية .. إنها النهاية

ولكن الارتجاج توقَّف بغتة ، مع آخر حروف صرخته ..

وهدأ كل شىء ..

ولثوان ، لم يصدِّق الدكتور (جمال) أنه قد نجا ، فظلَّ منكمشًا على نفسه ، يغلق عينيه فى قوة ، ويرتجف كطير مبتل ، فى يوم بارد ..

وأخيرًا ، فتح عينيه وحدَّق فيما أمامه فى ذهول مذعور ، عندما سمع صوت الضابط المسئول ، يقول فى خفوت ، يحمل كل انفعالات الدنيا :

ـ لم يتبق سوانا .

وأمام عينى الدكتور (جمال) ، وعلى مسافة عشرين

مترًا فحسب ، كانت حافة الشق تتألَّق ، بذلك الوهج البرتقالى وتنبعث من خلفها الأدخنة الحمراء القانية .. أما الشق نفسه ، فكان قد اتسع ، حتى التهم المكان كله ..

بكل ما فيه ..

ومن فيه ..

وكان هذا يعنى أن الدكتور (جمال)على حق ..

لا توجد وسيلة وحيدة للنجاة ..

أية وسيلة ..

★ ★ ★

« أريد استعادة طائرتى .. » .

نطق (عزت) العبارة ، بكل ما تفجَّر فى كيانه من انفعالات ، فحدَّق فيه (حسن) بدهشة ، مرددًا :

ـ طائرتك ؟! ماذا تعنى ؟!

لوَّح (عزت) بذراعيه انفعالاً ، وهو يقول :

ـ أعنى أننى أريد إنهاء الموقف كله .. أريد محو الساعات العشر الماضية ، وكأنها لم تكن .. سأقود طائرتى ، وأبتعد عن هنا .

هتف (حسن) مستنكرًا :

ـ تقود ماذا ؟! هل جننت يا رجل ؟! هذا مستحيل تمامًا .

أمسك (عزت) ذراعيه فى قوة ، وهو يقول :

ـ بل هذا هو الأمل الوحيد يا (حسن) .. صدقنى .. الأمل الوحيد فى أن ينجو عالمنا منهم .

حدّق فيه (حسن) بدهشة مستنكرة ، فتابع (عزت) فى انفعال :

ـ لقد كنت على حق .. أنا وحدى أعرف نقطة ضعفهم .. أنا وحدى يمكننى الوصول إليها ، وسحقهم تمامًا .. أرجوك .. أريد طائرتى .

ظلّ (حسن) يحدّق فيه لحظة ، ثم لم يلبث أن انتزع نفسه منه ، وتراجع بحركة حادة قائلاً :

ـ هذا غير ممكن .

وخفض عينيه لحظة ، وكأنما يخفى انفعالاً ما ، أو يحسم أمرًا ما ، ثم عاد يرفعهما ، قائلاً :

ـ طائرتك تحت التحفُّظ ، ومازالت تخضع للفحص والاختبار ، ومن المستحيل أن ..

قاطعه (عزت) فى انفعال :

ـ افعل شيئًا يا (حسن) .. أرجوك .. لاتضع الوقت .. لاتحطم عالمنا ؛ لأنك عاجز عن اتخاذ قرار كهذا .

ران عليهما صمت مطبق ، لما يقرب من دقيقة كاملة ، على الرغم من انفعالهما الجارف ، وكلاهما يتطلّع إلى عينى الآخر ، وكأنما يحاول أن يستشفّ ما يدور فى عقله ..

دقيقة عصفت فيها عشرات الأفكار والاحتمالات برأس (حسن) ..

صحيح أن ما يطلبه (عزت) عسير ..

ولكنه ليس مستحيلاً ..

فبحكم منصبه ، وموقعه ، والصلاحيات التى تم منحه إياها هذا الصباح ، كان باستطاعته أن يعيد (عزت) إلى طائرته ..

وأن يسمح له بالإقلاع بها أيضًا ..

صحيح أن الكل سيعترض على هذا الإجراء ، وربما يصفونه بالجنون ، كما أن الطيران الليلى ليس سهلاً أو مقبولاً ، وخاصة بوساطة مقاتلة عتيقة الطراز كهذه ..

ولكن أحدًا ـ بحكم القانون ـ لن يملك منعه ..

ومن ناحيته ، كصديق قديم لـ (عزت) ، فهو يميل إلى منحه ما يريد ..

حتى ولو كان هذا ضربًا من الجنون ..

ولكن من موقعه ، كضابط مخابرات مسئول ، لم يكن من الممكن أن يسمح بهذا ، قبل أن يتيقَّن من صحة الأسباب ، وصدق وسلامة الدوافع ..

و (عزت) يضعه أمام خيار عسير للغاية ..

فالعالم كله يواجه خطر إبادة شاملة ، خلال ساعات قليلة ..

وربما كان ما سيفعله (عزت) هو بالفعل الأمل الوحيد فى النجاة ..

ربما ..

ولكن هناك أمرًا آخر ، ينبغى أن يخشاه ..

ذلك النداء الغامض ، الذى تحدَّث عنه (عزت) أكثر من مرة ..

ماذا لو أن تلك الأشياء ، التى يجهل كينونتها تمامًا ، قد سيطرت على عقل (عزت) بالفعل ؟!

وماذا لو أن ما سيفعله بطائرته ، سيكون بمثابة إشعال فتيل عملية الإبادة الشاملة ، وهو نفسه لا يدرك هذا ؟!

احتمال بالغ الخطورة بالفعل ..

ولكن على (حسن) أن يتخذ القرار ..

وبمنتهى السرعة ..

وهذا ليس بالأمر اليسير ..

ليس كذلك أبدًا ..

وفى بطء يموج بالانفعالات ، سأل (حسن) :

ـ ماذا ستفعل بالطائرة ؟!

أجابه (عزت) فى سرعة وصرامة :

ـ سأذهب إليهم .. الطائرة ستحمينى منهم ، كما فعلت من قبل .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف :

ـ وأقسم ألا أتوقَّف ، قبل أن أمحو شرورهم ، من الكون كله .

ازدرد (حسن) لعابه ، وهو يسأل ، بصوت أكثر خفوتًا :

ـ وماذا سيحدث لك ؟!

تطلَّع (عزت) إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول مكررًا :

ـ أريد استعادة طائرتى يا (حسن) .. أرجوك .

ارتجفت شفتا (حسن) ، وهو يغمغم :

ـ ليس بهذه البساطة .

اندفع (عزت) نحو النافذة ، وأشار إلى المكان خارجها ، هاتفًا :

ـ هكذا ؟! ألق نظرة إذن على عالمنا يا صديقى .. فربما كانت هذه آخر مرة تراه فيها ، فى حياتك كلها .

ثم عقد ساعديه أمام صدره ، مضيفًا فى حزم عصبى :

ـ أعنى فى حياة الأرض كلها .

ولم يجب (حسن) بحرف واحد ..

فالقرار بالنسبة إليه مازال عسيرًا ..

عسيرًا للغاية ..

★ ★ ★

النهاية بدأت بالفعل ..

هذا ما أدركه الدكتور (جمال) وهو يحدّق مذعورًا فى ذلك الشق ، الذى راح يتسع فى سرعة مخيفة ، ودون أن يصحب هذا الاتساع أية ارتجاجات كالسابق .. لقد بدأت المرحلة النهائية ..

ذلك الشق ، بما يكمن داخله ، بدأ بالفعل رحلته لالتهام كل ما حوله ..

واللَّه (ﷻ) وحده يعلم ، متى يتوقَّف هذا ..

متى ؟!

وفى توتر بلا حدود ، هتف الضابط المسئول :

ـ رباه ! ألا يمكن إيقاف هذا أبدًا ؟!

كانا ينطلقان مبتعدين ، بآخر سيارة سليمة ، تبقَّت فى المكان ، وعلى الرغم من هذا ، فقد كانت حافة الشق تقترب منهما أسرع ..

وأسرع ..

وأسرع ..

وفى يأس غلَّفه ذعر بلا حدود ، غمغم الدكتور (جمال) :

- لافائدة .. لافائدة ..

كانِ كيانه كله قد انهار بداخله ، مع يأسه من النجاة ، والفرار من ذلك المصير البشع ، و ...

وفجأة ، ظهرت تلك المقاتلة فى السماء ..

مقاتلة قديمة ، من طراز الميج ، سوفيتية الصنع ، عبرت السماء بهدير قوى ، ثم دارت حول المكان ..

وفى دهشة كبيرة ، هتف الضابط المسئول :

- مقاتلة ؟! فى هذا الوقت من الليل .. ماذا يفعل هؤلاء المجانين ؟! هل يفكرون فى نسف تلك الفجوة ..

قبل حتى أن يتمَ كلمتـه ، كـانت المقاتلـة تنقض بـأقصى سرعتها ..

على منتصف الفجوة تمامًا ..

وصرخ الدكتور (جمال) :

- رباه ! إنهم مجانين بالفعل .

وبداخل المقاتلة ، انبعث للمرة العاشرة ، ذلك الهتاف التحذيرى :

- من القاعدة العسكرية إلى الميج .. عد إلى قاعدتك فورًا ، وإلا ..

قبل أن يكتمل الهتاف ، أغلق (عزت) جهاز الاتصال ، وهو يقول فى صرامة :

- ماذا يمكنكم فعله ، أكثر من هذا ؟!

قالها ، وهو ينطلق بمقاتلته نحو الفجوة ، التى غمرتها سحابة رهيبة دموية ..

وبسرعته التى تتجاوز سرعة الصوت ، اخترق سحابة الدم ..

وعبر الفجوة ..

كانت مساحة هائلة من الفراغ ، اصطبغت كلها بالوهج البرتقالى الرهيب ..

ولكنه لم يتوقَّف ..

لقد اعتدل بالطائرة ، وانحرف إلى اليمين ، وواصل انطلاقه عبر فراغ ضخم ، بدا وكأنه يحتل كل باطن الأرض تقريبًا ..

ولكنه كان يعرف طريقه جيدًا ..

وينطلق نحوه مباشرة ..

أسرع من الصوت ..

ولاح ذلك الغشاء الأصفر السميك أمامه ..

وبكل قوته وسرعته ، اخترقه ..

وانخفضت سرعة طائرته بغتة ..

انخفضت لتتواءم مع معدلات الزمن ، داخل ذلك الفراغ الجديد ..

وظهرت تلك الأشياء البشعة فى كل مكان ..

وبدا المكان كله أشبه بقطعة من الجحيم ..

كل شىء لم يعد كما هو على الأرض ..

كل القواعد والموازين والأسس العلمية اختلّت واختلفت ..

فها هو ذا ينطلق بطائرته ، بسرعة لاتزيد على مائة كيلومتر فى الساعة ، وكأنما يتم عرض المشهد بالتصوير البطىء ..

إلا أنه لم يفقد تحكُّمه فيها لحظة واحدة ..

والأشياء البشعة تنقضّ عليه من كل صوب ..

وتطلق نداءها ..

ذلك النداء ، الذى عاد ينطلق من كل خلية من خلاياه ..

ويعتصر مخه بلا هوادة ..

ولكنه قاوم ..

وقاوم ..

وقاوم ..

كل جسده بدأ يرتجف فى شدة ، والعرق الغزير يغمر وجهه وجسده ، وذلك النداء الرهيب يلتهم مخه بلا رحمة ..

ولكن الهدف بدا من بعيد ..

ذلك الشىء الشبيه بالمخ البشرى ، والذى تضاعف حجمه ألف مرة على الأقل ، عن ذلك الذى رآه ، وهو يخترق ذلك الكيان البرتقالى القديم ..

وبلا تردُّد ، اتجه بالطائرة نحوه ..

وانقضَّت الأشياء البشعة بعنف أكثر ..

واشتعلت كل خليةٍ من خلايا مخه بذلك النداء الرهيب ، الذى يحثه على التوقُّف والتراجع ..

ويدفعه إلى الجنون ..

أو الموت ..

واقتربت مقاتلته من الهدف أكثر وأكثر ..

وتضاعفت قوة النداء ..

وتمزَّق مخه أكثر ..

ولكنه قاوم بكل إرادته ..

بإرادة من فولاذ ..

قاوم ، لأنه كان يلبى نداءً أكثر تأثيرًا وقوة ..

نداء الوطن ..

والواجب ..

لذا فقد واصل طريقه ، وغمغم وهو ينقضّ على الهدف مباشرة :

ـ لن تظفروا بعالمى أبدًا أيها الأوغاد .

وعلى الرغم من آلامه وعذاباته ، شد قامته ، واكتست ملامحه بحزم وحسم ، وهو يرتطم بالهدف ، و ...

وانتهى كل شىء فى لحظة واحدة .

* * *

٩ ـ الفجر ..

كل شىء عاد إلى سابق عهده ..

كل شىء ..

وعندما انبلج الفجر ، واصطبغ الشفق بألوانه الرائعة ، لم يكن قد تبقّى ، من ذلك الشق المخيف ، سوى أثر صغير فى باطن الجبل ..

أثر لم تعد تتصاعد منه أية أدخنة ، مما شجّع بعض فريق الفحص على الالتفاف حوله ، والدكتور جمال يقول :

ـ سبحان الله (العلى القدير) .. يخلق بالفعل ما لانعلم .. ذلك الشىء كان فى حجم قرية كاملة ، منذ بضع ساعات ، ثم ها هو ذا يكاد يتلاشى الآن .. رباه ! لن تجدوا مثيلاً لهذا ، فى أية كتب جيولوجية أو علمية ، أو حتى تاريخية ..

هزّ الرائد (يحيى) رأسه ، قائلاً :

ـ من حسن حظنا جميعًا أن الأمر قد اندرج تحت بند السرية المطلقة ، لأنه كان من المستحيل أن نخبر به أحدًا ، دون أن يتهموننا بالجنون المطبق .

زمجر الضابط المسئول ، قبل أن يقول :

لولا ملابسات الأمر ، لما كان من المفترض أن تسمع حتى عن هذا الأمر أيها الرائد .

زفر (يحيى) مغمغمًا :

ـ ليت هذا ما حدث .. لايمكنك أن تتصوَّر كم ستترك فينا هذا التجربة الرهيبة من ذكريات وانفعالات .. ألا ترى تأثيرها على وجوه الكل .. أنت ، وأنا ، والدكتور (جمال) ، وفريقه العلمى ، و ...

صمت لحظة ، ثم استدار يشير إلى صخرة عالية بعيدة ، جلس فوقها رجل صامت ، يتطلّع إلى شروق الشمس ، وأردف :

ـ وحتى ذلك الغامض ، القادم من القاهرة .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (حسن) يجلس على تلك الصخرة ، محاولاً كتمان دموعه وانفعالاته وهو يستعيد لحظاته الأخيرة ، مع صديق عمره ، الذى فقده مرتين ..

« لاتجازف بحياتك يا (عزت) .. أرجوك .. »

« حياتى ثمن رخيص لما ستحققه مهمتى يا (حسن) .. »

« لايمكننى أن أفتقدك مرة أخرى .. »

« ولايمكنك حمايتى أيضًا كالسابق .. صدقنى .. الموت هو آخر شىء يمكن أن يقلق أمثالنا .. لقد كنا نتوقَّعه وننتظره ، مع كل طلعة جوية .. » .

« كان هذا فى أيام الحرب يا (عزت) .. » .

ارتسمت على شفتى (عزت) ابتسامة باهتة ، عندما نطق (حسن) عبارته الأخيرة ، وتطلَّع إليه ، قائلاً :

ـ هل نسيت حقيقة الموقف يا صديقى ؟! ربما انتهت الحرب بالنسبة لكم ، منذ عشرين عامًا .. وربما تعيشون اليوم تحت مظلة سلام لم أتصوَّر حدوثه قط ، ولايمكننى حتى قبوله ، من الناحيتين ، المنطقية والنفسية ، ولكن بالنسبة لى الحرب بدأت منذ ما يزيد قليلاً على الساعات العشر .. فمنذ تلك الفترة ـ بالنسبة لى ـ خرجت لأقاتل العدو ، تلبية لنداء الوطن ، ومشاعرى مازالت على حالها .. إننى مازلت ألبى النداء .

وتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، مضيفًا بكل الحزم والحسم :

ـ نداء الواجب .

على الرغم منه ، فرَّت دمعة من عينى (حسن) ، وهو يجلس على تلك الصخرة ، مستعيدًا حديثهما الأخير ، وانحدرت على وجهه ، فارتفعت أصابعه تمسحها فى حزن ومرارة ، وهو يتمتم :

ـ لقد كنت أشجعنا يا صديقى .. كنت أصدقنا ، وأروعنا ، وأكثرنا بطولة .. كلنا كنا نبذل حياتنا فى سبيل الوطن ، أما أنت ، فدفعت حياتك فى سبيل العالم كله .

كانت تلك الدمعة إيذانا بثغرة فى مشاعره ، انحدرت معها كل دموعه على وجنتيه ، وهو يواصل :

ـ صدقنى .. لن أنساك أبدًا .. بطولتك الفريدة لن يعلم بها أحد ، ولن تشير إليها كتب التاريخ ، ولكننى سأذكرك دومًا .. سأذكرك ، ليس لأننا صديقين فحسب ، ولكن لأن بيننا أخوة من نوع خاص .

ورفع سبَّابته ؛ ليلقى نظرة على الجرح الحديث ، فى أعلاها ، وهو يضيف :

ـ أخوة دم .

وبلا مقاومة ، ترك دموعه الغزيرة تغرق وجهه ، وهـو يتطلّع إلى ذلك الذى لم يكن العالم ليشـهده قط ، لـولا أن لبى صديقه الراحل نداء الواجب ..

إلى الفجر ..

الفجر الجديد .

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)